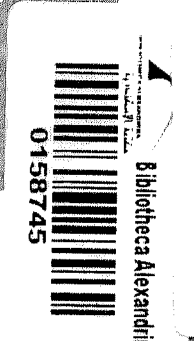
بطرس البستاني

معارك العرب

في الشرق والغرب

دار مارون عبود





بطرس البستاني

معارك العرب

في الشرق والغرب

دار مارون عبود
تلفون ٩٣٤٧١٤ ـ ٩٣٦٧٧٢ ص.ب ١١/٨٠٨٦

طبعة جديدة

١٩٨٧

فاتحــــة

يقف الباحث في التاريخ العربي ودونه مجلدات قديمة ضخمة ، متشعبة الدروب والمسالك ، مشتبهة المعالم والمجاهل . تختلط فيهـا الحقائق بالاوهام ، والحوادث بالأساطير . تتعـدد الروايات فتختلف وتتناقض ، وتثبت وتنفي . توجز في مواضع يحمد عندها الاسهاب ، وتسهب في مواضع لا يضيرها الايجاز . تدوّن اتفه الأخبار حيناً ، وتغفل أحياناً عظائم الأمور . تبني تاريخها على ما يجري من الأحداث المادية كل سنة كالولادة والزواج والولاية والحروب والفتن والوفيات ، وتنسقه على قيام الدولة وذكر ما ينتابها من الخطوب حتى سقوطها وتغلب دولة أخرى عليها ، دون أن تعنى بتعليل الأسبـاب التي أدت إلى قيامها وانهيارها كما يقتديه فقه التاريخ . ولا تتكلف إظهار حضارتها فتتكلم على احوالها الاقتصادية ، وتنظيماتها الادارية والعسكرية والقضائية ، أو على سياستها الخارجية وعلاقاتها بالدول الغريبة ،

أو ما يتناول اجمالاً تقاليدها الاجتماعية وحياتها الفكرية والأدبية . حتى ابن خلدون الذي عرف ان يستنبط علم العمران في مقدمته الجميلة لم يحسن ان يستغل علمه في انشاء تاريخه فكان كغيره ممن تقدمه من المؤرخين .

فاذا اراد الباحث المعاصر ان يكتب في التاريخ القديم تحتم عليه ان يراجع هذه المجلدات الضخمة مع ما فيها من تشويش ونقص واختلاط ليستخرج من طياتها البعيدة ما يحتاج اليه من المواد المنبثة في شعاب أخبارها لبناء تاريخ يرضى عنه العلم الحديث .

ونحن في كتابنا هذا لم نتناول التاريخ من وجهته الشاملة لنأتي على جميع أقسامه . وإنما أخذنا انفسنا بابحاث فرعية تلامس أشهر المعارك التي نشبت بين الدول العربية والدول العجمية منذ صدر الاسلام الى أن زالت كلمة الضاد بانتقال الخلافة إلى بني عثمان . ولم نعرض الا للحروب التي خاض العرب غمارها في الشرق والغرب ، مواقعين جيوش الدول المنظمة كالفرس والبيزنطيين والممالك الأوروبية . وتركنا الثورات والفتن الداخلية ، والغارات التي شنها غزاة مغامرون غرباء حالفهم التوفيق فتغلبوا على دولة الخلافة لتفسخها وفساد نظامها السياسي ، ثم استعربوا لغة وحضارة كالبويهيين والسلاجقة وسواهم ، إلا اذا كان لهذه الغارات والفتن

هدف يرمي إلى نقل الامامة وتبديل السلطان كموقعة الزاب التي تحولت بها الخلافة من بني أمية إلى بني العباس ، وانتقلت دار الملك من دمشق الى بغداد ، او كموقعة البذ التي هدمت مطامع الفرس في استرجاع عرش الاكاسرة ، أو كغارة هولاكو على البلاد الاسلامية وما كان من مقتل الخليفة والتجاء العباسيين إلى مصر .

ورأينا ألا نقصر مباحثنا على ذكر القتال ونتائجه بل نتعهد فيها تعليل الأسباب التي قادت فريقاً إلى النصر ، وفريقاً جرته الى الوبال ، ولاسيا المواقع العظيمة التي ان اجتزىء بسرد أخبارها دون شرح وتعليل ، أخرجت النصر عجيباً مدهشاً غير منتظر ، ربما يرضي عشاق سير البطولة وخوارق الأساطير ، ولكنه لا يرضي اهل العلم ، ولا يشبع طالب الحقيقة . فموقعة القادسية التي انتصر بها العرب على الفرس وهزموا كتائب كسرى المنظمة وهم قوم على الفطرة لا يعرفون من شرائع الحروب غير الغارة والغزو والكر والفر ، هذه الموقعة تدخل حتماً في باب الاسطورة ، الم تفصل العوامل النفسانية والاجتماعية التي جعلت هؤلاء البدو يستقوون ، وأولئك المتحضرين يستضعفون . وكذلك واقعة اليرموك التي اندحرت بها جيوش الدولة البزنطية لا تقلّ غرابة عن القادسية اذا لم تعرف حالة بزنطة وسورية في ذلك العهد . وهكذا فتح الاندلس ومعركة بواتيه وموقعة الزاب وغيرها لا يرتاح الى نتائجها

الفكر السليم قبل ان يطلع ما تقدمها وما تقدمها وما تخللها من الأسباب والعوامل .

وُعنينا بالجانب الفني من المعارك على قدر ما استطاعت المراجع التي بين أيدينا أن تمدنا من الارشادات الى الخطط الحربية والحركات العسكرية التي تظهر فيها عبقريات القواد وحيلهم ومكايدهم في توجيه القتال واغتنام النصر . ويبدو ذلك في اكثر المواقع ولا سيا حصار القسطنطينية ، وموقعة البذ ، وموقعة عمورية ، وحروب سيف الدولة ونقفور .

ومعلوم ان الرواية العربية لا تغني وحدها اذا اقتصر عليها في مثل هذه الابحاث لما يعتورها من غموض وخبط واقتضاب . فآثرنا ان نعود معها الى التواريخ الغربية وما كتب عن كل دولة من هذه الدول التي حاربت العرب وحاربوها ، لتتضح لنا بمقابلة المساند المختلفة وجوه الحقائق ، وتستوي مسالك البحث . وتتّوفر موارد التفصيل . فقد يكون في الرواية العربية اشياء لا توجد في الرواية الغربية . وقد يكون في هذه أشياء لا توجد في تلك . فاذا وضع بعضها قبالة بعض ، وُمحصت بصدق وامانة ، أخرجت عملاً صالحاً كما نرجو ان يكون هذا العمل الذي توّفرنا على انشائه ، وتجشمنا من أجله ذلك السبيل . ولم نحتجّ لرواية على اختها سواء أكانت عربية أم عجمية ، الا اذا ترجحت لدينا

أفضليتها ، واطمأنت اليها نفسنا على ما يرتضيه العقل ، ويعتز به المنطق ، لا يجرحه ما يخالجها أحياناً من عصبية البلد والعنصر والدين . فمؤرخو الفرنجة كمؤرخي العرب لا يبرؤون في الجملة من الحمية لارضهم وجنسهم وديانتهم ، وكثيراً ما يسخرون تفكيرهم لخدمة عاطفتهم في معالجة قضية تاريخية تمس شواعرهم ، فينقضون ما لا يروقهم من الأقوال متوكئين على تضارب الروايات واختلاف مصادرها بحيث لا يؤمن الانسحاب على آرائهم دون تنخّلها وتقليب وجوهها لتمييز الحق من باطلها .

ورأينا ان نستهل كتابنا بموقعة القادسية ، وان تأخر يومها عن واقعة اليرموك . لأن الحملة التي نشطت لفتح العراق تقدمت الحملة التي قامت لفتح الشآم فكانت الأحداث الممهدة للقادسية اسبق من الاحداث الممهدة لليرموك . وجعلنا المعارك بعدها تنتقل بين الشرق والغرب بحسب أزمنتها وعصورها الى ان انتهينا الى حروب صقلية فختمنا بها الجزء الاول ، على ان نفتتح الثاني بيوم طليطلة ونتتبع بعده ما نشب من المعارك الكبرى في الاندلس حتى خروج العرب منها . ثم ننكفىء الى الشرق فنعرض ما حدث فيه من الوقائع الخطيرة الى ان ننتهي عند فتح بني عثمان لسورية ومصر ، فيتم الكتاب بجزئيه حاملاً الى القراء لوناً جديداً من البحث في تاريخ العرب لا يتجاوز ميادين القتال الا ليشق درباً يقود اليها . وفي هذه الميادين ولدت المملكة العربية

وترعرعت، واتسعت وامتدت اطرافها . وفي هذه الميادين تقلصت ظلالها ، وانهارت عروشها غرباً وشرقاً . وفي هذه الميادين للعرب قاطبة عبرة وذكرى، ولذة وألم .

بطرس البستاني

موقعة القادسية

خرج العرب من قلب البادية وأطرافها ، شراذم منتثرات لا نظام يجمع اشتاتهم ، حفاة لا نعـــال في أرجلهم ، عراة أو عليهم أسمال بالية . فـــاجتازوا حدود العراق ثم توغلوا في سواده ، يفتتحون البلاد أرضاً أرضاً ، ويخضعون السكان شعباً شعباً . على ألسنتهم ثلاث كلمات يرددونها في مسامع أعدائهم قبل أن يباشروا القتال : الإسلام ، واما الجزية أو الحرب !. ثلاث كلمات لهم فيها غنيمتان . فالكلمة الأولى تدعو الناس إلى الدين الجديد . وأصحاب الدعوة يرجون بها غنيمة الآخرة . والكلمة الثانيـة تضرب عليهم الجزية إلم يجيبوا دعوة الاسلام . وفيها غنيمة المال تستقيم بـــه أمور المسلمين في حياتهم المادية . ثم الكلمة الثالثـة ، وهي الحرب جهاداً في سبيل الدين ، وفتحاً لكنوز الدنيا . فيها غنيمة الأرض وغنيمة السماء . فكان يجيب الدعـوة الأولى قوم فينضمون اليهم ،

واصلين حظهم بحظهم . ويرضى بالثانية غيرهم ، فيؤدون الجزية عن يد صاغرين . ويرغب في الحرب اكثرهم فما ينتفعون بها ، لأنها كانت عليهم وبالاً ، تتساقط فيها بلدانهم تباعاً ، فيدخلها الغزاة ظافرين مكبرين . حتى كانت موقعة القادسية ، فقررت في خلال أربعة ايام مصير دولة الشرق العظمى ، تاج ملك الملوك وإيوان كسرى . وخطت بدولة العرب ممتدة الفتوح في الأمصار الغريبة بعد أن كانوا منقبضين في شبه جزيرتهم لا ينهضون لمحاربة شعب خارج حدودهم .

تلك الموقعة جديرة بأن تكون عبرة التاريخ لانها خاتمة عصر وفاتحة عصر . رفعت مملكة فتية على انقاض مملكة عجوز فغيرت وجه الشرق القديم ، وأبدلته ديناً بدين .

وكان ملك المناذرة قد تضعضع في العراق بعد مقتل النعمان أبي قابوس ، وصارت ولاية الحيرة إلى اياس بن قبيصة الطائي . ولكن حكومة الفرس رأت ان تدير انحاء السواد بنفسها ، فأرسلت اليها المرازبة والحكام . والسواد هي سهول بابل المنبسطة بجانب الفرات ، واطلق العرب عليها هذا الاسم ، لما فيها من الزرع والشجر والنخيل ، وهي متاخمة لشبه جزيرتهم الجرداء . فاذا خرجوا من أرضهم بدت لهم سهول العراق سوداء بزروعها وأشجارها ، فسموها السواد . ولطالما طمعوا في مائها وعشبها يسلبون قراها

ومزارعها ، ويعودون إلى ديارهم غانمين . وأشد العرب جرأة على الحدود الفارسية في السواد ، بنو ربيعة لنزولهم في أطرافه ، ولا سيما بعد ان أصاب البكريون نصراً محلياً على الفرس في يوم ذي قار . فتاهوا به على الدنيا فخراً وتغنت بأمجادهم شعراؤهم دهراً .

فلما صارت الخلافة الى ابي بكر بعد موت النبي ، واخذ العرب يقدمون على حدود الروم في سورية ، وحدود الفرس في العراق ، كان احد فرسان بني بكر واسمه المثنى بن حارثة الشيباني ، يغير على السواد في رجال من قومه ، فبلغ خبره الى الخليفة الأول ، فدعاه اليه فاستعمله على السواد وكتب له بذلك عهداً ، فأسلم المثنى وأسلم قومه معه . ثم انطلق يوالي الغارات على أسفل الفرات . وزاده طمعاً في دولة الفرس ان حالتها سيئة من سياستها الداخلية ، ولا قدرة لها على حماية الحدود . فأصاب في غزواته نجاحاً سريعاً نبّه خاطر الخليفة ، فأمر القائد خالد بن الوليد أن يسير إلى العراق . وكتب الى المثنى بأن ينضم اليه ، ويعمل بأمره . فاخترق خالد حدود العراق والتحق به المثنى بن حارثة ، فجاء الحيرة فدخلها صلحاً ، ورضي أهلها بدفع الجزية ، وان يكونوا عيوناً للعرب على الفرس موالاة لأبناء جنسهم .

وكان المالك على الفرس يوم دخل خالد أرض العراق (١٢ هـ

ـ ٦٣٣ م) يزدجرد الثالث ، صعد الى العرش سنة ٦٣٢ م ليشهد انهيار مملكة الساسانيين ، بعد ان استولى عليها الضعف ، وحان اجلها المحتوم .

وكان يحكم في تلك النواحي قائد من الفرس اسمه هرمز ، فلما انتهى اليه خبر خالد ، جمع جيشاً والتقى العرب في كاظمة على مسافة يومين من الموضع الذي بنيت فيه البصرة في خلافة عمر ابن الخطاب . فاقتتلوا في اليوم الأول ، وبارز هرمز خالداً في اليوم التالي ، فسطا عليه خالد وارداه . ثم التحم الجيشان فدارت الدائرة على الفرس فانهزموا تاركين أسلابهم للمسلمين . فأخذ خالد قلنسوة هرمز ، وهي من القلانس التي يلبسها أبناء البيوتات في فارس . قيل انها كانت محلاة بالجواهر ، وتبلغ قيمتها مائة الف درهم . وسميت هذه الواقعة بذات السلاسل ، لان جماعة من جنود الفرس اقترن بعضهم إلى بعض بالسلاسل متعاهدين أن لا يركنو الى الفرار .

وتابع خالد غاراته ففتح الانبار وعين التمر . ولكنه لم يلبث أن استدعي الى سورية لمحاربة الروم فاستخلف المثنى بن حارثة على الفرات ، وأخذ قسماً كبيراً من الجيش وسار الى بلاد الشام .

ثم بعث يزدجرد جيشاً لقتال المثنى ، فهزمه العرب في خرائب بابل . فاستدعى الملك رستم بن فروخ هرمزد قائد القواد ، وحاكم

خراسان . وهو الذي ساعد يزدجرد على بلوغ العرش انتقاماً من الملكة آزرميدخت التي قتلت أباه. فاضطر المثنى ان يرتد بجيشه الصغير أمام الكتائب الفارسية .

وكان أبو بكر قد توفي وصارت الخلافة بعده الى عمر بن الخطاب صاحب العزيمة الفولاذية ، فلما جاءه نبأ المثنى ، لم يغفل ساعة عن تلافي الخطب ، بل عقد لابي عبيد بن مسعود الثقفي ، وأمره أن يذهب بتجريدة إلى العراق . فحالف التوفيق أبا عبيد في معاركه الاولى ، فانتصر على قائدين من قواد رستم هما جابان ونرسي ، فكسر الاول في ناحية الحيرة ، والثاني في كسكر جنوبي بابل .

ولكن القوات الفارسية ما لبثت أن تجمعت فصعد أبو عبيد الى الشمال يتلقاها ليقطع عليها طريق الحيرة . فخطر له أن يعبر الجسر بجيشه الى ضفة الفرات اليسرى تاركاً النهر وراءه ، فعارضه بعض قواده فلم ينتصح . فأقبلت عليهم جيوش الفرس يقودها بهمن ، ومعها الأفيال تطأ الرجال باقدامها وتلفهم بخراطيمها . فتضايق المسلمون وقصر عليهم المجال ، فتأخروا وبان النصر للفرس . ثم تلقى فيل من الأفيال أبا عبيد فاقتلعه بخرطومه عن ظهر جواده وخبط به الأرض وداسه بيديه . فلما رأى العرب ما نزل بقائدهم دب الذعر في نفوسهم ، فهموا بالفرار فسبقهم الى النهر رجل من ثقيف ، وقد رأى ما اصاب ابن عمه أبا عبيد ، فقطع

(٢)

الجسر وقال لهم : « موتوا أو تظفروا . » وقيل بل قطّعه أبو عبيد بعد عبوره منعاً للفرار . ثم أخذتهم سيوف الفرس وحرابهم فتبعثروا أمامهم متبددين يلقي بعضهم بنفسه الى الفرات ، ويُقتل آخرون ، حتى ذهب منهم نحو أربعة آلاف بين قتيل وغريق . ولو لم يقف المثنى بن حارثة على رأس بني بكر يحمي ظهور الهاربين ، لكانت الخسارة أعظم . ولكنه لبث في قومه يقاتل الفرس ويدافعهم حتى عقد الجسر ثانية وعبر المسلمون عليه فعبر هو وبنو بكر بعدهم مخضباً دامي الجراح .

ووفدت فلول الهاربين الى المدينة تحمل خبر واقعة الجسر وتنعى أبا عبيد . فنشط عمر الى ارسال النجدات غير متوان ، يخطب في الناس ويحضهم على الجهاد . وجعل الجيش هذه المرة تحت قيادة المثنى . وكان بهمن قد استدعي الى المدائن عاصمة الفرس ليقمع شغباً داخلياً . فخلفه على الجيش مهران الهمذاني احد أبناء البيوتات . ورابط المثنى في البويب قرب الحيرة ينتظر قدوم مهران بعساكره ، حتى أقبلوا وعبروا الجسر فالتقتهم جموع المسلمين تتلاحق بهم النجدات من جهات مختلفة ، وفيهم نصارى من النمر وتغلب جاؤوا يقاتلون العجم حميّة مع أبناء قومهم ، فرجحت كفة العرب ، واستطالوا على الفرس . فأسرع المثنى الى الجسر فقطعه ليمنع العدو من الفرار ، فحارب الاعجام

مستميتين حتى تقطعت جيوشهم ، وهلك قائدهم مهران (١٤ هـ ـ ٦٣٥ م) .

وخلا الجو للعرب بعد تشتت العساكر الفارسية فاكتسحوا جزيرة الفرات ودجلة ، وملكوا جميع ما بين النهرين .

ثم علم المثنى ان رستم يعبىء الجحافل في المدائن وانه اتفق مع خصمه الفيرزان أحد عظماء الفرس . فاسرع الى المدينة يطلع الخليفة على الامر ، فأمده عمر بقوات كبيرة . وجعل القيادة لسعد بن ابي وقاص أحد الصحابة القدماء ، لخطورة الموقف ، ولما لاصحاب النبي من التأثير في نفوس المسلمين . على ان سعداً عرف نصيحة المثني وسداد رأيه حين أوصاه بان ينتظر قدوم الفرس بدلاً من أن يزحف الى لقائهم في أرضهم .

ولم يكن المثنى قد شفي بعد من جراحه التي أصابته يوم الجسر ، لأنه لم يعطها الراحة الكافية لتندمل ، فانتقضت عليه فأودت بحياة هذا الفارس الشجاع الذي جاهد في سبيل الاسلام ثلاث سنوات متواليات ، وفتح له على الفرات الفتح المبين . مات قبل ان يشهد واقعة القادسية ، وسقوط المدائن وعرش ساسان .

أما رستم فسار بجيشه نحو الحيرة (١٦ هـ ـ ٦٣٧ م) ، وكان المسلمون قد جلوا عنها لما علموا باقترابه . فعسكر القائد الفارسي

في القادسية على مقربة منها . وعسكر المسلمون بين القادسية والعذيب كما أشار عليهم المثنى قبل وفاته .

واختلف المؤرخون في عدد الجيش العربي الذي شهد القادسية ، ولكن يؤخذ من كلام المسعودي وابن خلدون انه كان بين الستين والثمانين الفاً . واتفقوا على ان جيش الفرس عدده مائة وعشرون الفاً معهم ثلاثون فيلاً ، إلا ان ابن خلدون يجعل عدده ستين الفاً .

وحاول رستم في بدء الأمر أن يصرف العرب عن بلاده بالمفاوضات السلمية . وكانه كره محاربتهم بعد ان رأى تفسخ جيشه وضعفه في المعارك السابقة ، فكتب إلى سعد يسأله توجيه بعض اصحابه اليه . فبعث جماعة من اصحاب الرأي بينهم المغيرة ابن شعبة . فهددهم رستم وتوعدهم ليبعث الهيبة في نفوسهم . ثم وعدهم بأن يعطيهم ما يرضيهم إذا انصرفوا إلى بلادهم ، فأصروا على كلماتهم الثلاث : الإسلام ! واما الجزية او الحرب . فغضب رستم من جرأتهم ، وأمر باخراجهم .

وكان قد مضى على قدومه أربعة أشهر وهو لا يباشر حرباً . فلما انقطعت المفاوضات التحم الجيشان بعد ظهر ذات يوم ، وحمي القتال . ولكن سعداً لم يحارب مع جيشه اسوة بقواد العرب ، لأنه كان معتلاً يشكو عرق النساء ، وفي بدنه دمامل لا يستطيع معها الجلوس . فتخلف في حصن العذيب ، وجلس في أعلاه مكباً على

وجهه يشرف على الجيشين ، ويراقب سير المعمعة . فاغتاظ المسلمون من عمله ، ولاموه وعابوا عليه تخلفه ، فنزل اليهم معتذراً ، وأراهم قروحه فعذروه .

ودارت المعركة أربعة أيام ، فتميز اليوم الأول منهـــا برشق النبال ، وعراك الأفيال . فان الفرس اطلقوها على ميمنـة الجيش العربي وميسرته كما تطلق الدبابات اليوم ، فتلقاها الرماة بالسهـام ، ولكنها كانت شديدة الوطأة فتباعدت عنها الخيل وتضايق منهـا المتقاتلون ، ولا سيما بنو بجيلة . فثبت بنو أسد ودافعـوا دفـاع الابطال فدارت الرحى عليهم . وتشبهت بهم بنو كندة فاقتحمت وعلى رأسها الأشعث بن قيس . ثم أرسل سعد الى عاصم بن عمرو سيد بني تميم ان يتدبر حيلة لهذه الأفيـــال . وكان صاحب رأي . فأشار على الرماة بأن يشاغلوا راكبيها بالسهام ، وبعث جماعة جاؤوها من خلفها وقطعوا حُزمها ، فتساقط اصحابها عن ظهورها وتساقطت صناديقها فنفرت عارية تدوس من وقع تحت اقدامها ، فتنفس بنو أسد وانفرجت بجيلة .

وفي اليوم الثاني جاءت النجدات من سورية ، بعـــد اندحار الروم في اليرموك ، يتقدمها القعقاع بن عمرو ، فازداد العرب نشاطاً وحمية . وامتاز القعقاع في هذا اليوم بشجاعته وسداد رأيه . فانه بارز جماعة من فرسان الاعاجم فقتلهم واحداً واحداً . وأشار بأن

توضع البراقع على وجوه الابل وسيرها بركابها عشرة عشرة ، تدفعها الفرسان بجيادها ، فاندفعت على خيول الأعداء هادرة هائجة فبددت شملها وبعثرتها . ولم يخرج الفرس هذا النهار افيالهم لأن صناديقها تكسرت ، فكابدوا من وطأة الابل أعظم مما كابد المسلمون من الافيال في اليوم الفائت .

واستمر العراك دائراً حتى انتصاف الليل . قال الطبري وابن خلدون : « كانت خسارة المسلمين الفين بين قتيل وجريح . وكانت خسارة المشركين عشرة آلاف . »

وبات القعقاع ليلته يوصي اصحابه إذا طلعت الشمس بأن يقبلوا مائة مائة ، يريد أن يجدد بذلك رجاء النـــاس ، وينشط قواهم . فلما اسفر الصبح أقبل اصحاب القعقاع مائة بعد مائة ، ففرح المسلمون وقالوا : جاء المدد ، وارتفع تكبيرهم . ثم لحق بهم هاشم بن عتبه بأصحابه ، يبعثهم سبعين سبعين مقتدياً بالقعقاع . وفيهم قيس بن المكشوح المرادي من الفرسان المعدودين . فاغتبط المسلمون لهذه الامداد ، واشتدت عزائمهم .

وأما الفرس فانهم نظموا صفوفهم وأعادوا الصناديق على ظهور الأفيال ، وأقاموا رجالاً حولها يمنعون تقطيع حُزمها وخلفهم فرسان يحمون ظهورهم . والظاهر ان خيل المسلمين تعودت مرآها فلم تنفر منها هذه المرة . وكان اليوم الثالث عظيم الهول ، التحم

فيه الجيشان على السواء . وأبلى قيس بن المكشوح وعمرو بن معدي كرب فارس زبيد ، بلاء حسناً شهدت لهما به الفرسان . وزحفت الأفيال تفرق الكتائب وتبددها ، وفيها فيلان أحدهما أبيض والآخر أجرب كانا أشدها وطأة وأعظمها بطشاً . فارسل سعد الى القعقاع وعاصم ابني عمرو أن يتدبرا أمر هذين الفيلين . فحملا على الأبيض برمحين لينين ، ووضعاهما في عينيه فقتل الفيل وراكبه . ثم حملا على الأجرب ، ففقئت عينه وقطع خرطومه ، فمر بين الفرسان شارداً حائراً فاتبعته الافيال خارقة صفوف الأعاجم ، متجهة نحو المدائن ، وهلك جميع ركابها .

واحتدم القتال فوصل الليل بالنهار . ويسمي العرب هذه الليلة بليلة الهرير لشدة ما ارتفع فيها من الصياح والجلبة ووقع الحديد على الحديد .

وخاف سعد ان يؤتى المسلمون ليلاً من ورائهم بطريق مخاضة أسفل السكر ، فبعث اليها جماعة من الفرسان تحميها ، فاجتازها بعضهم والتفوا على الاعاجم من خلفهم فارتاع هؤلاء لهذه المباغتة . ثم زاحفهم القعقاع وقومه ، ثم حمل بنو أسد فالنُخع فبجيلة فكندة . وكبر سعد ثلاثاً فتلاحق المسلمون ، واختلط الجمع بالجمع ، فما يسمع إلا صليل السلاح . وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد حتى منتصف الليل ، فسمع صوت

القعقاع في جماعة من الرؤساء يتنادون : إلى رستم . ومـا أشرق صباح اليوم الرابع حتى كان القعقاع وعمرو بن معـدي كرب وطليحة بن خويلد الاسدي وهلال بن علّفة وسواهم من الأبطال يشقون قلب الجيش إلى رستم ، فقاتلهم عنه الفيرزان والهرمزان ، ثم انفرج القلب عن قائد القواد .

وكان رستم جالساً على سرير ومعه جماعة من أهل مشورته ، وفوقه طيارة تردعنه الشمس . فهبت ريح عاصفة فقلبت الطيارة عن السرير ، فقام عنه يستظل بظل بغل عليه حمل ، فتناولتـه سيوف فرسان العرب ورماحهم ، فوقع الى الأرض وقد امتلأ بدنه طعناً وضرباً .

فتضعضعت جيوس الفرش بعد مقتل قائدها فـانهزمت شر هزيمة ، وسقطت في أيدي المسلمين الراية العظمى ، رمز المملكة المقدس ، تلك الراية التي يتذكر بها الفرس تحرير بلادهم عـلى يد بطلهم الاسطوري افريدون ، راية الحداد كاوي « دِرَفشي كاويغاني » وهي غنيمة كبرى لأنها كانت محلاة بالجواهر الكريمة .

وانتهت معركة القادسية بانهيار كتائب الفرس ، لتنهار بعدها مملكة الاكاسرة . وطبيعي ان يستهين العرب بالعجم بعد هـذا الانتصار العظيم الذي ما كانوا يحلمون به في جاهليتهم . فتبعوهم الى عاصمتهم المدائن « Ctésiphon - Séleucie » وهي عبـارة عن

سبع مدن قائمة على ضفتي دجلة . فخاف يزدجرد على نفسه ، فترك العاصمة إلى حلوان يحتمي بقلعتها . فلما بلغ العرب المدائن وعاينوا الايوان كبروا وقالوا : هذا ابيض كسرى . هذا ما وعد الله . فحاصروها ثلاثة أشهر ثم اقتحموها خائضين دجلة بخيولهم ، واستولوا عليها سنة ٦٣٧ م بعدما جلا عنها الجيش والسكان . فدخل سعد القصر الأبيض ، وصلى في الايوان . ثم جمع ذخائر الملوك وغنائم العاصمة ، فبعث الى عمر بن الخطاب بتاج كسرى وحليته وثيابه وسيفه ، وسيف النعمان ابي قابوش . وكان سيفه هناك منذ قتله كسرى . وقسم الغنائم بعد أن أخذ خمسها ، فبلغت حصة الفارس اثني عشر الف درهم ، وكانوا ستين الف فارس ليس فيهم راجل ، كما يقول ابن خلدون .

وتتبع المسلمون بقايا الفرق الفارسية فسحقوها في جلولاء ، قرب نهوند سنة ٦٤٢ م ، فلجأ ملك الملوك الى مرو حيث وجد مقتولاً سنة ٦٥١ م .

هكذا زالت دولة الفرس وتم النصر للعرب . وفي نصوهم عبرة للمتأمل ، فكيف استطاعوا ان يسحقوا كتائب العجم المنظمة ، بعصائب جيش لا نظام له ، وهم في بلاد غريبة عن صحرائهم ، وما تعودوا الحرب إلا داخل الصحراء ؟ كيف استطاعوا ان يقفوا أمام الفرس صفاً صفاً ، وما عرفوا في

جاهليتهم غير الكر والفر ؟ اسئلة كثيرة تدور في الرأس ، فتحملنا على البحث في حالة هذا الشعب العربي بعد اسلامه : وفي حالة الدولة الفارسية يومذاك .

إذا نظرنا إلى العرب ، وكيف جاؤوا إلى قتال الفرس ، نجدهم ممتلئين إيماناً بدينهم الجديد ، واثقين بانهم يجيبون كلمة الله إذا نشروا دينه على الأمم الغريبة . وان الله وعدهم بأن يفتح لهم البلاد . وجاءت انتصارات الاسلام المحلية في عهد النبوة معززة لهذا الايمان فجعلته كبيراً في النفوس . ونرى قوادهم واصحاب الرأي فيهم لا ينفكون يذكرونهم بهذا الوعد ، ويكررون على مسامعهم أمر الله ، لكي تبقى قلوبهم متصلة به ، فلا ينسوا أن الله معهم على أعدائهم المشركين . وان من مات منهم جهاداً في سبيل الله ، كانت له الشهادة ، والجنة نعم الثواب . ونسمعهم عندما يطلون على المدائن يكبرون ويصيحون : هذا أبيض كسرى ! هذا ما وعد الله .

وإذا دخلوا أرضاً أو دعوا إلى مفاوضة وضعوا كلمة الاسلام قبل كل شيء . فالدين إذا كان له أثر قوي في توحيد قلوب هذا الجيش الشتيت ، وفي تشديد عزائمه للجهاد .

ثم ان انتصارات المثنى بن حارثة وقومه البكريين ، واستيلاءهم على بعض قرى السواد الخصبة ، أطمعت العرب وفتحت عيونهم

نحو تلك البلاد . وهم قوم فقراء في أرض بخيلة لا تدر عليهم إلا الشحيح . فكان إذا أراد الخليفة ترغيب القواد في الجهاد ، يستعملهم على الأراضي التي يفتتحونها ليستغلوا منافعها ، ويذهب العسكر طامعاً في الغنيمة على أمل أن يكسى بعد عري ، ويشبع بعد جوع . فحصته مكفولة إذا حارب ، والبلاد التي يدعى للذهاب اليها ، غنية بأموالها وزروعها ونسائها وجواهر ملوكها . وكما كان القواد والخطباء يكررون على مسامعهم وعد الله لهم ، فكذلك كانوا يكررون ذكر ثروة البلاد القادمين عليها وخصب أرضها ، وجمال نسائها . فهم يعدونهم بالدين والدنيا معاً على حد ما قال لهم بعض خطبائهم : « يا معاشر العرب ، قاتلوا للدين والدنيا . » وقال لهم آخر : « هذه بلاد قد أحل الله لكم أهلها ، وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنين ما لا ينالون منكم . وانتم الأعلون . والله معكم . إن صبرتم وصدقتموهم الضرب والطعن فلكم أموالهم ونساؤهم وأبناؤهم وبلادهم . »

ولا ريب ان هذه الخطب المملوءة بالأماني الدينية والدنيوية كان لها الاثر الفعال في نفوس المجاهدين .

ولا ننسى أيضاً ان المسلمين كانوا يجدون في نصارى الحيرة والسواد ، وفيهم قبائل عربية ، عوناً لهم ومساعداً لأنهم كانوا يفضلونهم على الفرس المستبدين بهم ، ويتعصب العربي منهم لجنسه .

فقد دخلوا الحيرة صلحاً ، وكان أهلها عيوناً لهم على الاعجـــام . وجاءت عشائر نصرانية من النمر وتغلب تقاتل معهم حمية . فوجدوا من سكان السواد فرقة خامسة (كما يسميها التعبير الحربي الحديث) تسهل لهم الفتح والتغلب .

ثم ان النجدات كانت تتوالى على المحاربين من مختلف النواحي . ويرجع الفضل في ذلك إلى نشاط عمر بن الخطاب وسهره وكبر قلبه ، وسرعة تنفيذه للأمور . فإنه لم يتلكأ ساعة عن استنهاض الهمم واستنفار القبائل ، وارسال الامداد من سورية بعـد ان تم له النصر على الاروام .

وإذا ذكرنا القواد فلا ننسى فضل المثنى بن حارثة الذي مهـد الطريق لنصر القادسية خلال ثلاث سنوات . ثم ما كان لخالد بن الوليد من يدبيضاء على الفتوح الأولى . ثم القعقاع وبسالتـه وحسن رأيه . وكذلك سعد بن ابي وقاص فإنه لم يباشر الحرب بنفسه شان قواد العرب ، فقد كان بقاؤه في أعلى الحصن مراقباً سير المعركة أفيـد للمسلمين ، فانه أتيح له أن يتتبع حركات الجيش فيتلافى أماكن الضعف ومواطن الخطر بما يصدره من الأوامر للقواد وأصحاب الرأي والحيلة . هكذا كانت حالة العرب في حرب القادسية ، فكيف هي حالة الفرس ؟

كانت بلاد الفرس في حالة فوضى واضطراب ، وضعف وسوء

تدبير ، توالى عليها خلال أربع سنوات اثنا عشر ملكاً بين سنة ٦٢٨ م وسنة ٦٣٢ م ، وبعض هؤلاء الملوك لم يحكم أكثر من بضعة أشهر ، فإما يخلع وإما يقتل . والدسائس في المملكة يدبرها القواد في اختلاف بعضهم مع بعض ، وتحزبهم إلى أمير يملك دون آخر . ونساء القصر يشتركن في هذه الدسائس ، ويعتلي بعضهم العرش كما اعتلته بوران بعد خلع أردشير . وقد رأينا رستم والفيزان مختلفين قبل موقعة القادسية ، ورأينا بهمن يترك الجيش إلى المدائن ليهدىء اضطراباً داخلياً .

وهؤلاء القواد لم يكن فيهم واحد يستحق أن ينعت بالخبرة ، وحسن التدبير . حتى ان رستم القائد العام لم يبدر منه في المعركة شيء يسترعي الأنظار شأن الجندي الكبير .

ثم ألا يحق لنا ان نتساءل مع بعض المستشرقين : ترى ألم يكن الشعب الفارسي يرتاح في قرارة نفسه إلى التخلص من سلطان المجوس المزدكيين ، هذا السلطان الذي يثقل عليه ظله يوماً بعد يوم ؟

نحن نعلم ان الفرس لم يكونوا كلهم مزدكيين ، بل فيهم طوائف يكرهون المزدكية ، وينفرون منها ، وهم اليهود والنصارى والمانويون والبوذيون والبراهمة . فهذه العناصر البعيدة عن المزدكية كان المجوس يضطهدونها ليفرضوا عليها عقيدتهم . لذلك كانت ساخطة على الديانة الرسمية التي تؤيدها الحكومة ، وتتمنى الخلاص منها . ولم يكن الجيش

الفارسي على اختلاف عناصره ليحارب بحمية واخلاص ، بل ربما كانت هذه العناصر ترى خيراً في انتصار المسلمين لتتخلص من نير المجوس الثقيل . يدلنا على ذلك سرعة قبول الفرس للدين الاسلامي بعد الفتح العربي . وقد رأينا رستم يحاول صرف المسلمين عن الحرب لأنه لم يكن يجهل حالة الجيش وتفسخه ، فتمسك العرب بمطالبهم ، فلم يبق له من سبيل سوى الحرب فخاضها على غير قوة واتحـــاد وايمان ، فسقط في ساحة القادسية مهشم الأعضاء . وتبددت بعده كتائب الفرس ثم انهار العرش ، وزلزل الايوان ، وقامت دولة العرب ، وزالت دولة الاعجام .

واقعة اليرموك

على ضفاف نهر اليرموك ، جنوبي بحيرة طـبرية ، في وادي الياقوصة وسهلها ، كانت الموقعة الفاصلة بـين العرب والروم . تحطمت فيها جيوش هرقل ، فذهبت أشتاتاً لا تلتم لها فلول الا لتذوب أمام قلعة أو مدينة ، فيدخلها العرب الفاتحون صلحاً أو عنوة ، حتى وقعت سورية باجمعها في أيديهم ، وتقلص عنها ظل بزنطة إلى ما وراء الدرب (جبال طوروش) . وترك هرقل انطاكيـة قافلاً إلى القسطنطينية وعيناه عالقتان بتلك الأرض الحبيبـة التي ودعها وداع الأبد . وصارت دمشق ولاية عربية طوال عهد الخلفاء الراشدين لتصبح بعد حين عاصمة الدولة الأموية ، مملكة العرب الأولى في الاسلام .

فقد خرج الغزاة من البادية يغيرون على سواد العراق ممهدين

لمعركة القادسية الحاسمة. وخرجوا في الوقت نفسه يغيرون على أنحاء فلسطين ليضربوا الضربة القاضية في اليرموك. فكيف تم لهم هذا الحدث العظيم ؟

بينا خالد بن الوليد يفتتح العراق ، ومعه المثنى بن حارثة ، كان ابو بكر يتجه بانظاره إلى سورية ، ترافقه أنظار القبائل العربية من بدو وحضر ، طامحة كلها الى غزو تلك البلاد الغنية العامرة. فما كاد يستنفر للجهاد أهل مكة والطائف واليمن ، واعراب الحجاز ونجد ، ويرغبهم في غنائم الروم ، حتى سارع اليه الناس ، ما بين طائع لله ، وطامع في الدنيا . فعقد ثلاثة الوية ، لواء ليزيد بن ابي سفيان مكان الصحابي خالد بن سعيد ، عاملاً برأي عمر بن الخطاب . ولواء لشرحبيل بن حسنة . والتحق خالد ابن سعيد بجيش شرحبيل تطوعاً للجهاد . ولواء ثالثاً لعمرو بن العاص . وجعل كل لواء ثلاثة آلاف مقاتل. ثم أمدهم بالنجدات فبلغ اللواء سبعة آلاف وخمسمئة .

وأمر عمرو بن العاص ان يسلك طريق شاطىء البحر الاحمر الى أيلة (العقبة) ويزيد وشرحبيلا أن يسلكا طريق تبوك فالبلقاء . واستعمل كل قائد اميراً على ارض ترغيباً له في الغزو ، ودفعاً لاحتمال وقوع الخلاف . فولى عمراً فلسطين ، وشرحبيلاً شرقي الاردن ، ويزيد دمشق . وكان بدء الحملة في اواخر سنة

١٢ هـ (٦٣٣ م) . فقد ذكر الطبري ان أبا بكر لما قفل من الحج سنة اثنتي عشرة جهز الجيوش الى الشام .

فجهز يزيد إلى تبوك ، ومنهـا قصد جنوبي البحر الميت مشرفاً على وادي العربة ، فتصدى له سرجيوس بطريق قيسارية (قيصرية) فهزمه يزيد . فلجـأ البطريق بجيشه إلى غزة . ثم انكسر في موقعة داثن وقتـل وتمزقت قواه . فتمكنت الجيوش العربية أن تحتل بلدان فلسطين بسهولة ، ما عدا المدن المحصنة ، من غزة في الجنوب إلى جبال حوران في الشمال .

ولما تأدى الخبر إلى هرقل قيصر بزنطة ، أمر الجيوش الجاهزة لديه بالمسير إلى سورية ، ووضعها تحت قيادة أخيـه تيودور ، ويسميه العرب « تذارق » . فصاروا إلى أجنادين ، وهي بلد من فلسطين بين بيت جبرين والرملة . وكان المسلمون قد تلقوا مدداً جديداً سبعة آلاف بقيادة أبي عبيدة بن الجراح . ولكن عمـرو ابن العاص رأى قوة الروم عظيمة ، فكتب إلى أبي بكر يطلعه على الأمر ويطلب اليه أن يمدهم بالعساكر . فـاستدعى أبو بكر ، خـالد بن الوليد من العراق وأمره أن يلتحق بجيوش الشام ، فسار خالد بعشرة آلاف ، على رواية الطبري ، وبثمانمائة أو أقـل ، على رواية البلاذري ، ومشى صعداً بجانب الفرات غازياً إلى مـا وراء قرقيسية . ثم اجتاز بادية تدمر من الشمال إلى الجنوب ، وجد

مسرعاً نحو دمشق ، فغزا في طريقه قرى للغساسنة حتى جاء قيصرية في حوران واتصل بالقواد الثلاثة : ابي عبيدة ويزيد وشرحبيل . فخفوا جميعاً إلى العربة لاحقين بعمرو بن العاص . (١٣ هـ ـ ٦٣٤ م) .

وزحفت الجيوش العربية إلى أجنادين ، قاصدة جيوش الروم ، فنشبت بينهم المعركة في ٢٨ جمادي الأولى سنة ١٣ هـ (٣٠ تموز ٦٣٤ م) . ويقول البلاذري أن عدد الروم يوم أجنادين كان زهاء مائة الف . وفي فتوح الشام ، المنسوب للواقدي ، ان جيش المسلمين كان يومئذ اثنين وثلاثين الفاً . وظهر فضل خالد بن الوليد في هذه الوقعة على سائر القواد ، فقد أبلى فيها خير بلاء انتهت بانكسار الجيش اليوناني وهزيمته فلجأت فلوله إلى دمشق ، وهرب تيودور إلى حمص ، وكان فيها هرقل أخوه ، جاءها من القسطنطينية ليشرف على المعركة بنفسه . فلما شهد انهزام أخيه ، وانهيار جيشه ، سارع الى انطاكية ليجهز جيشاً جديداً .

وأصبحت فلسطين وجنوبي سورية ، بعد واقعة أجنادين في أيدي العرب الفاتحين . وعبثاً حاولت فلول تيودور ان تستأنف القتال في بيسان (٢٨ ذي القعدة ١٣ هـ ، ٢٣ كانون الثاني ٦٣٥ م) ، فإن المسلمين ساروا اليهم حتى نزلوا فحل ، وهو مكان في الجنوب الشرقي من بحيرة طبرية ، فبثق البزنطيون سدود وادي الأردن ،

فامتلأت الأرض ماء وأوحالاً ، فلم يستطع العرب الوصول اليهم ، ولكن الروم عبروا الأردن وبيتوهم ليلاً فقاتلهم المسلمون ، وكان قائدهم شرحبيل بن حسنة ، شديد الحذر يبيت على تعبية ، ويصبح على تعبية ، فلم يؤخذوا على حين غرة . واستمر العراك طوال ليلتهم حتى ليل اليوم الثاني ، فانهزم البزنطيون ، ووحلت خيولهم ، وكذلك لقي المسلمون عناء كبيراً من الوحول والمياه . واستسلمت بيسان بعد هذه الموقعة .

وسار خالد بن سعيد بتجريدة إلى مرج الصفر ، على بعد يوم من دمشق للراجل الماشي . ففاجأه جيش يوناني ، يعد أربعة آلاف محارب ، فقاتله العرب مستبسلين ، ولكنهم خسروا في هذه المعركة خسارة جسيمة ، وقتل قائدهم خالد . ثم ارتد عنهم البزنطيون إلى دمشق ليحاصروا فيها ، لأن جيوش المسلمين كانت زاحفة إلى عاصمة سورية وعلى رأسها خالد بن الوليد .

وكان العرب قبل مجيء خالد من العراق ، يحاربون متساندين كل جيش وأميره لا تجمعهم قيادة واحدة . فدعا خالد الأمراء الى توحيد رئاسة الجيش ، على ان تتنقل فيهم واحداً بعد واحد ، لئلا يثير الحسد في نفوسهم ، فاستحسنوا رأيه وجعلوه أميراً عليهم . فكان في معركة أجنادين أبرز القواد وأظهرهم شخصاً . ورأى الأمراء ما عنده من الباس والخبرة وحسن الطالع والتوفيق ،

فتركوا له القيادة العليا في كل حرب يباشرونها . ولكن الواقدي والبلاذري يذكران في جملة الروايات ان أبا بكر جعله اميراً على الأمراء في الحرب . ولذلك نجده يسير على رأس الجيوش الى دمشق لمحاربة البزنطيين . وكان الجيش القيصري قد أستعصم باسوار دمشق ، وغلّق أبوابها . فحاصرها خالد ستة أشهر من محرم الى رجب (١٤ هـ ، ٦٣٥ م) ، حتى تضايق أهلها ويئسوا من ارسال الامداد اليهم ، ففتحوا الأبواب مستسلمين ، وقيل انها فتحت صلحاً من جهة ، وعنوة من جهة أخرى ، فأمضيت كلها على الصلح . ويروي البلاذري ، ان اسقف الدير ، الذي كان خالد معسكراً بقربه ، هو الذي فاوضه على صلح دمشق ، وسهّل له أهل الدير دخولها . ويعلل المستشرق كليمان هيوار ذلك بقوله : ان رجال الدين في العاصمة كانوا مستائين من الانظمة التي فرضها عليهم هرقل ليضع حداً للمجادلات اللاهوتية ، فساعدوا على تسليم القلاع للمسلمين .

وما كان يهون على هرقل ، ان يتخلى عن سورية للعرب الفاتحين ، وفيه بقية أمل تحفزه للدفاع عنها . فليس الجيش البزنطي الذي تشتت في أجنادين وبيسان ، الا جزءاً يسيراً من قوات الامبراطورية ، مجموعاً من الحاميات الجاهزة في الثغور . فلم يكن انهياره واحتلال دمشق ليفت في عضد القيصر ، فبادر الى حشد جيش عظيم في حمص وجعل على رأسه تيودور ، ولكنه كان خليطاً من البزنطيين والارمن والعرب المتنصرة . وكان على الأرمن قائد

يقال له فاهان ، وعلى العرب جبلة بن الايهم الغساني ، وقد استرضاه هرقل بعد ان دفع له جعالاته السنوية التي كانت مقطوعة عنه . ويقول البلاذري ان جيش الروم بلغ زهاء مئتي الف ، ويجعله ابن خلدون مائتين وأربعين الفاً . اما المستشرق كليمان هيوار فلا يرتفع به الى اكثر من ثمانين الفاً . وكان الجيش العربي أربعة وعشرين الفاً على رواية البلاذري .

وتحركت القوات البزنطية من حمص في شباط ٦٣٦ م (بدء سنة ١٥ هـ) فبلغ خبرها خالد بن الوليد ، فاستعظم هذا الجيش الذي لم يعهدوا مثله في سوابق حروبهم مع الروم ، فأمر الجنود العربية بالتراجع عن سورية فجلوا عن دمشق وسواها من المدن المحتلة ، وانقلبوا الى ناحية الأردن ليتمكنوا من الرجوع الى البادية ان لم يكتب لهم التوفيق ، فرابطوا في الجنوب الشرقي من نهر اليرموك الذي يصب في الأردن جنوبي بحيرة طبرية ، وجعلوا الصحراء وراءهم .

وكان الجيش البزنطي يسير ببطء لكثرة عدده اولاً ، ثم لما وقع بين رجاله خلال الزحف من الانتفاضات والمشاحنات ، حتى ان الأرمن ثاروا ونادوا بقائدهم فاهان امبراطوراً كما يقول كليمان هيوار . لذلك لم يبلغوا الاردن الا في آب ، فعبروه ، وعسكروا شرقيه في وادي الياقوصة .

وفي ٢٠ آب ـ ١٢ رجب خرج الروم للقتال في تعبيــة لم ير الراؤون مثلها على حد تعبير الطبري . وخرج خالد في تعبيــة لم تعبّها العرب قبل ذلك . فقد رأى جيش الروم لا يحارب صفاً صفاً كما يفعل المسلمون منذ عهد النبوة ، وإنما يتألف فرقاً فرقاً في القلب والميمنة والميسرة . ففعل مثلهم وخرج في ستة وثلاثين كردوساً إلى الاربعين . ووزع هذه الفرق على الجناحين والقلب . وجعل على كل كردوس قائداً ينظمه ويديره . ثم حملت الروم حملة واحدة فأزالت المسلمين عن مراكزهم . فتدارك خالد جدشه بــــدرايته ، فشدد قواه ولمّه وزحف به على العدو حتى تصافحوا بالسيوف . ثم أخذ يطارد قواد الروم . فاستخذى اليه أحــــدهم ، واسمه جرجه ، فأسلم على يده ، وانضم إلى العرب .

ثم انضم اليهم جبلة بن الأيهم بمن معه من الغساسنة والفـافهم من العرب المنتصرة . فانكشف جيش بزنطة ، وانثغرت جبهتــه ، ثم هبت ريح عاصفة ، هي الريح الجنوبية ، أو الجنوبية الشرقيــة المعروفة بالخمسين ، كما يقول كليمان هيوار ، فأثارت من الغبار غماماً عميت به أبصار جيوش القيصر ، فتضايقوا في قتالهم ، وارتبكوا ثم نهد خالد بالقلب فصدعه مخترقاً خطوط الدفاع . والتف عليهم بفرسانه من الجانب الغربي ، فــاحتل الجسر وقطع عنهم طريق الرجعة . فتضعضع اليونان وخرجت خيولهم لاجئة بفرسانهـا إلى الأماكن المحصنة ، فافرج لها العرب فمرت ولم يحرجوها . ثم اقبل

خالد بفرسانه على المشاة ، فأعملوا فيهم السيوف ، فكانت لهم مجزرة مخيفة فني فيها خلق كثير منهم بين قتيل وغريق القى بنفسه إلى النهر .

قال البلاذري : « قتل من الروم زهاء سبعين الفاً وهرب فلّهم ، فلحقوا بفلسطين وانطاكية وحلب والجزيرة وارمينية . » وهلك تيودور في المعركة بعد ان تبدد جيشه ، وتصدع القلب عنه .

فلما بلغ هرقل نبأ اليرموك واضمحلال جيشه ، ترك انطاكية يائساً وقفل إلى القسطنطينية ، فلما جاوز الدرب قال : « سوزه سورية . » وسوزه كلمة يونانية معناها كوني بسلام .

واستعاد المسلمون بعد اليرموك جميع البلاد التي جلوا عنها ، وتم لهم الاستيلاء على سورية كلها بعد سقوط قلعة قيسارية جنوبي عكا سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) ، فأزالوا آخر سلطان لليونان على ربوع الشام ، فكانت واقعة اليرموك كارثة قاضية على امبراطورية بزنطة في الأراضي السورية ، وغير عجيب أن تصيبها هذه النكبة والمسلمون كما عهدناهم في كلامنا على موقعة القادسية ، يندفعون الى الجهاد بقوة واتحاد ورغبة في الدين والدنيا . ولم تكن حالة بزنطة في سياستها وجندها وادارتها ، يوم دخل العرب سورية ، أحسن من حالة الفرس يوم اجتاز المسلمون أرض العراق . فقد رأينا الجيش البزنطي منقسماً على نفسه ، فالأرمن يشغبون وينادون بقائدهم

امبراطوراً . وجبلة بن الايهم وجرجه ينضمان بالعرب المسيحيين الى صفوف المسلمين ، فيقاتلون معهم ، فتصدع بخروجهم جيش الروم وأصابه الشلل . فقد هربت فرسانه . وتمزقت مشاته واكثر البلدان السورية لم تنشط للدفاع عن أرضها بل فتحت أبوابها للعرب فدخلوها صلحاً . ولما ترك المسلمون دمشق ليقاتلوا في اليرموك ودعهم اهلها بحزن شديد ، لأنهم كانوا يكرهون حكم البزنطيين ففضلوا حكم الفاتح الجديد . والبلاد التي حاربت العرب بشدة هي التي تكاثر فيها العنصر اليوناني ، أو كان فيها قوة من الجيش البزنطي . حتى إذا اضمحل هذا الجيش لم يبق لهرقل من أمل في سورية لانه يعلم كرهها لسلطانه ولا يتوقع منها معونة ودفاعاً مخلصاً ، فتركها وارتد إلى عاصمته .

وهذا الكره يعود إلى أسباب دينية وسياسية ، فإن السوريين كانوا في كثرتهم من أتباع الكنيسة اليعقوبية التي تقول ان اللاهوتية والناسوتية تؤلفان طبيعة واحدة هي المسيح . وكان إلى جانبها الكنيسة الملكانية التي تميز في المسيح بين طبيعتين ، الطبيعة الالهية والطبيعة البشرية . والملكانية هي الكنيسة الرسمية التي يتبع عقائدها قياصرة بزنطة « ويرون في عقائد اليعقوبية بدعة في الدين لا يصح السكوت عن مقاومتها . فبلغت المجادلات البزنطية حدها في عهد هرقل حتى أصبح عامة الشعب يجادلون في اللاهوت ، فتقع المشاحنات بين أصحاب المذهبين في الأسواق والمجتمعات . فرأى هرقل أن

يضع حداً لهذه المناقشات ، على أن لا يخسر صداقة اليعقوبيين ، فلجأ إلى تسوية لاهوتية ، تقول بأن المسيح فيه قوة واحدة ، أو إرادة واحدة . فلقي هذا التوحيد بعض النجاح في القسطنطينية ، وسكت عنه البابا اونوريوس الأول ، إلا انه لم يرضِ اليعقوبيين ، ولم يمح حقدهم على المجمع الخلقيدوني ، الذي اعتبرهم ملاحدة ، وأنكر عقائدهم .

وفي سنة ٦٣٦ وقّع القيصر النظام الذي يبين طريقة الإيمان الجديد ، فثارت عليه اليعقوبية ، وحدثت لأجله معركة كان من شأنها ان تبعد سورية عن بزنطة إلى الأبد ، كما يقول ستيفان ونسمان مؤلف كتاب « المدنية البزنطية » .

ولما غزا الفرس سورية سنة ٦١٤ ودخلوا ارضها ، تصدى لهم هرقل بجيوشه فوقعت بينهم حروب طاحنة طويلة انتهت بانكسار الفرس سنة ٦٢٨ ، ولكنها كلفت القيصر غالياً ، وتألم منها خصوصاً سكان الولايات القائلة بالطبيعة الواحدة ، لأنهم ، مع ما نالهم من ويلات الحرب ، وضعت عليهم الضرائب الثقيلة ، لتسد ما اصاب بيت المال من عجز ونقصان . وقطعت الجعالات السنوية عن قبائل العرب التي كانت تحرس الحدود وترد غزاة البادية . والغساسنة أعظم هذه القبائل واشدها خطراً . وكان ملوك بزنطة قد استعملوهم لحراسة الحدود على البلقاء وما يليها من الأردن وحوران وغوطة

دمشق ، ومنحوا امراءهم الألقاب السنية وألبسوهم الاكاليل والتيجان . حتى كانت ولاية المنذر بن الحارث الأكبر فنقم عليه طيباريوس واعتقله سنة ٥٨٢ م ومنع عن ابنائه الجعالة السنوية ، فثاروا في الشام وشنوا الغارات على الاراضي البزنطية ، فطاردتهم جيوش الروم ، وقبضت على النعمان أخيهم الأكبر ، فمال عرش الغساسنة إلى الضعف ، وانفصلت عنه عدة إمارات ، حتى إذا استولى الفرس على ديار الشام هوى العرش ودابت الامارات وخضع اكثر أصحابها للفاتحين . إلا انه عاد للغساسنة شيء من ملكهم بعد طرد الفرس ، ولكنه ضعيف ليس له قوته الماضية التي كانت تحفظ التخوم وترد عنها الغزاة . وكان الغساسنة على مذهب اليعقوبية المبتدعة . فلا غرو ان ينحاز جبلة بن الايهم الى العرب ، حمية مع أبناء جنسه وكرها للبزنطيين الذين قطعوا الجعالة عنه وعن آبائه ، واضطهدوا ابناء مذهبه اصحاب الطبيعة الواحدة .

فهذه الأسباب اجتمعت كلها فجعلت سورية عوناً على البزنطيين بدلاً من أن تكون عوناً لهم ، فتنكرت لأربابها الاقدمين ، وولتهم ظهرها ناقمة ، وفتحت صدرها مرحبة بالعرب الغزاة ومملكة الأمويين .

حصار القسطنطينية

ما كادت معركة اليرموك تقضي على هرقل ، قيصر بزنطة بالجلاء عن سورية ، حتى أخذ العرب يتتبعون ما بقي من الحصون الرومية ممتنعاً عليهم ، فافتتحوه بلداً بعد بلد ، فدانت لهم ارض الشام بأجمعها . ثم قادتهم سواحلها إلى مصر فافريقية ، فسلخوها عن جسم الامبراطورية اليونانية . وخرج الروم منها كما خرجوا من سورية عاجزين عن الدفاع ، لما هم عليه من ضعف وتفسخ واختلاف .

ومات هرقل سنة ٦٤١ م ، فصار العرش بعده إلى حفيده قنسطان الثاني ، فكان معظم همه ان يحمي الدرب (طورس) ويمنع المسلمين من اجتيازه ، ولكنه لم يستطع دفعهم عنه ، لانهم اخذوا يخرجون كل سنة إلى ما وراء ثغورهم فيقطعون سلسلة الجبال ، ويخترقون آسيا الصغرى غازين مدنها وقراها ، مهددين عاصمة

القياصرة . وجعلوا لغزوها جيشاً مخصوصاً يسمونه الصائفة ، لأنهم كانوا يغزونها في الصيف لاشتداد الصقيع في شتائها ، إلا انهم كانوا يضطرون أحياناً الى تمضية فصل الأمطار هناك ، على ما يعانون من وقع الزمهرير ، وهم أبناء الصحراء اللافحة . لذلك اعتمد الأمويون في غزو الروم على أهل الشام والجزيرة ، لأنهم اكثر احتمالاً للاقاليم الباردة ، ثم لما هم عليه من كره لبزنطة التي كانت تضطهدهم وترذل آراءهم في الدين . قال البلاذري : « كانت بنو أمية تغزو الروم باهل الشام والجزيرة صائفة وشاتية . » ولم يقتصر تهديد المسلمين لبزنطة وعاصمتها على البر وحده ، بل تناول البحر أيضاً ، فراحت سفن معاوية تشق عباب المتوسط فتحتل جزر اليونان ، وتهدد عاصمة الامبراطورية الشرقية .

وكانت ولاية دمشق والاردن قد انتهت إلى معاوية بعد موت أخيه يزيد ، اقره عليها عمر بن الخطاب ، فوجه نشاطه الى توسيع امارته بالفتوح ، ورمى بانظاره إلى المتوسط وما فيه من الجزر القريبة ، ورأى ما في السواحل اللبنانية والفلسطينية من صناعة للسفن وبحارة ماهرين ، فعهد اليهم في بناء اسطوله وتقديم لوازمه من رجال وعتاد . وكتب الى عمر بن الخطاب يستأذنه في فتح قبرص ويقول له : « ان قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلاب قبرص وصياح ديوكها . » يريد بذلك ان يبين له قربها من الشواطىء السورية . فمال عمر إلى فتحها ، ولكن العرب كانوا يومئذ يخشون

البحر ولا يعرفون شيئاً عنه، وهم ابناء البادية العطشى إلى الماء . فكتب الخليفة الى عمرو بن العاص ، وكان قد فتح مصر بطريق البر واستعمله عمر عليها ، فطلب منه ان يصف له البحر وراكبه لأن نفسه تنازعه اليه . فكتب اليه عمرو : « اني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ليس الا السماء والماء ، ان ركن أقلق القلوب ، وان تحرك ازاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة ، وراكبه دود على عود إن مال غرق ، وان نجا برق . » فلما بلغت هذه الرسالة عمر كتب الى معاوية يقول : « والذي بعث محمداً بالحق لا أحمل فيه مسلماً ابداً . » فتوقف معاوية عن عمله العظيم ، ولكن لم يصرفه عن خاطره .

فلما توفي عمر وصارت الخلافة الى عثمان بن عفان ، عاد معاوية الى مشروعه يحاول تحقيقه ، فألح على الخليفة نسيبه في غزو البحر وفتح قبرص ، فأذن له مشترطاً ان لا يكره مسلماً على ركوب البحر ، بل يأخذهم تطوعاً واختياراً . فأعد له بحارة السواحل السفن ، فركب من عكا ومعه جماعة من الصحابة ، فساروا الى قبرص ودخلوها صلحاً (٢٨ هـ ــ ٦٤٨ م) ، فكانت أول غزوة غزاها العرب في البحر وحالفهم التوفيق .

وأما في البر ، فإن معاوية تابع غزو الروم بالصوائف والشواتي حتى أقلق بها راحة القيصر قنسطان ، ففي سنة ٢٥ هـ (٦٤٥ م)

توغل في آسيا الصغرى حتى بلغ قاعدتها عمورية ثم عاد ظافراً غانماً . فلما غلب القيصر على امره وعجز عن حماية الدرب ودفع المسلمين عن اجتيازه عقد معاهدة مع معاوية ، من شروطها أن يؤدي مالاً معيناً كل سنة . فارتضى به معاوية موقتاً . ولكن الأمير الأموي ، الذي اعدته الاقدار لتأسيس المملكة العربية الأولى ، كان يفكر في أمر عظيم ، وربما كان يفكر فيه معه سواد الصحابة والمسلمين ، وهو الجهاد المتواصل لفتح عاصمة الروم ، كما فتحت عاصمة الفرس . فلماذا لا تسقط القسطنطينية وقد سقطت قبلها المدائن ؟ فالدعوة للدين الجديد يجب ان تشمل ارض بزنطة كما شملت أرض ساسان .

فلما انقضت المعاهدة حشد معاوية جيشاً كبيراً (٣٢ هـ ـ ٦٥٣ م) وقطع به الدرب وسار يخترق بلاد الروم حتى بلغ شمالها ووقف عند خليج البوسفور . وتوالت الحملات البرية والبحرية حتى كانت سنة ٤٩ هـ (٦٦٩ م) والخلافة لمعاوية ، فقاد الجيش ابنه يزيد حتى بلغ القسطنطينية ، وسار بالأسطول بسر بن ابي ارطاة فعبر الدردنيل ، وأنزل الجيش في الشاطىء الاوروبي ، فاشتد الحصار على العاصمة الرومية ، وهاجمها المسلمون براً وبحراً . فهب البزنطيون للدفاع عنها بما لديهم من شتى الوسائل ، ولاسيما النار اليونانية ، فانها كانت أعظم اداة للدفاع عندهم ، ولا يعرف يومئذ سر تركيبها غيرهم ، فكانوا يمطرون الاسطول والجيش بقذائفها واسهمها المشتعلة ، أو يرشقونها

بالأواني من أعالي الحصون والاسوار ، او يبعثونهـــا من أنابيب مستطيلة ، تنقذف عنها بالضغط كما تنقذف حجارة المنجنيق .

ويقول ستيفان رنسمان صاحب كتاب « المدنية البزنطية » : انهم ربما أدخلوا ملح البارود على تركيبها الكيماوي ليستطيع ان يدفع لهيبها من الانابيب الى الأهداف البعيدة . وكان يخرج لقذائفها أزيز ودوي ، ولاسيما عندما تنفجر في ملامستها للسفن ، فتسيل عليها النيران ملتهمة سريعة الاندلاع ، لا يقوى الماء على اطفائها ، وليس إلا الخل والرمل والبول .

فتضايق منها الجيش والاسطول معـــاً ، وأصابتهما بتلف عظيم . وكانت إلى ذلك حصون القسطنطينية وأسوارهـا منيعـة جداً ، وقد دافع البزنطيون مستميتين ، متحدي القلوب لا يفسدها اختلاف العقائد ، كما أفسدها في سورية ومصر . فقـد كانوا في كثرتهم من اتباع الكنيسة الملكانية ، وليس لليعقوبية عندهم صوت مرفوع .

على ان العرب لم يفتروا عن تشديد الحصار والهجوم مع ما لقوا من المصاعب والأهوال ، ولم يدب اليأس والفشل في نفوسهم ، مع ما نالهم من خسارة في الأرواح والسفن . فكانوا إذا أدركهم الشتاء بقرّه ، وآذاهم احتمال الصقيع ، رفعوا الحصار ولجأوا إلى الجزر القريبة حتى يذهب الشتاء ويعتدل الهواء فيعـــودوا الى

الى حصارهم ومهاجماتهم . ولبثوا زهـاء سبع سنوات يضيقون الخناق على عاصمة البزنطيين ، وهي تدافع عن نفسها بحصونهـا وحراقاتها ونيرانها ، وتـنزل باسطول العرب وجيشهم الأضرار البليغة . وساعدتها العواصف مراراً فأغرقت طـائفة من السفن فأضعفت قوة الأسطول . فرأى المسلمون أخـيراً ان الحصار لا فائدة منه بل فيه الأذية لهم ، فقرروا الرجوع الى بلادهم ، فارتد الجيش بطريق البر ، وارتد الأسطول أيضاً (٥٨ هـ ـ ٦٧٧ م) ، بعد جهاد باسل لقي فيه العرب أشد العناء ، فصبروا أجمل الصبر ، ونشروا الهول على أسوار القسطنطينية ردحاً من الزمن .

ولكن الصوائف ، بعد رجوعهم ، لم تنقطع تماماً عن بلاد الروم حتى توفي معاوية سنة ٦٠ هـ (٦٧٩ م) وانتقل الملك بعده الى ابنه يزيد ، فكان مقتل الحسين بن علي وما تلاه من الثورات والفتن ، وقيام عبدالله بن الزبير يدعي الخلافة فيبايعه عليها الحجاز واليمن والعراق ومصر . وتبقى سورية وحدها مخلصة لابنائها الامويين الذين نشأوا فيها ، وترعرعوا تحت سمائها ، واتسموا بسماتها ، فانبرت للدفاع عنهم مقدمة صدور ابنائها ، فاشتغل الناس بالحروب الداخلية صارفين وجوههم عن ارض الروم فتعطلت الصوائف طوال ذلك العهد . فكان البزنطيون واحلافهم يغيرون على السواحل

ويثخنون في العرب . والمسلمون مشتغلون بفتنهم الحزبية ولاسيا زمن عبد الملك بن مروان ، فقد اشتدت ثورات الخوارج والشيعة ، وحروب الزبيريين واحلافهم قيس عيلان ، حتى اضطر الخليفة الاموي ان يسترضي قيصر بزنطة ليتقي شره ويفرغ لشؤونه الداخلية . قال ابن خلدون : فصالح عبد الملك صاحب قسطنطينية على أن يؤدي اليه كل يوم جمعة الف دينار خيفة منه على المسلمين . » وكان ذلك سنة ٧٠ هـ (٦٨٩ م) .

فلما سكنت الفتنة أو كادت بعد مقتل مصعب بن الزبير عادت الصوائف الى غاراتها السنوية تسترجع الأراضي التي استعادها الروم في أثناء الفتن ، وتجتاز الدرب غازية آسيا الصغرى ، ولكنها لا تتقدم إلى القسطنطينية ، ولا تفكر في معاودة حصارها ، حتى استخلف سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ هـ (٧١٤ م) فحشد جيشاً عظيماً يبلغ زهاء مائة وعشرين الفاً على قول ابن العبري ، وجعله تحت قيادة أخيه مسلمة ، وجهز من السفن اسطولاً ضخماً . فزحف الجيش مخترقاً آسيا ، ومخر الأسطول متجهاً إلى بحر مرمرة ٩٨ هـ (٧١٦ م) فوصل الجيش إلى البوسفور ، وعبر الأسطول مضيق الدردنيل فسد بمراكبه منافذ الأرخبيل والبحر الأسود ، واحاط بالعاصمة براً وبحراً ليمنع عنها الامداد والمؤن .

وكانت القسطنطينية في حالة سيئة من الفوضى ، فقد حاول

القيصر انسطاس ان يصلح الجيش ويعيد اليه النظام ، فثار عليه وخلعه وأقام مكانه رجلاً خـــامل الذكر توجوه باسم تيودوس الثالث ، ولم يكن أهلاً لأن يجابه الأخطار المحدقة بالعاصمة .

وكان البطريق لاوون قائد القواد يراقب هذه الحالة ويقلبهـــا على وجوهها ، فرأى أنه لا يمكن ان يستقيم للروم أمر وهم على هذا الضعف والاختلال ، فمد يده إلى العرش واستولى عليه ، ورضي به الجند فنادوا به امبراطوراً باسم لارون الثـــالث (٧١٧ م) فنشط للدفاع عن القسطنطينية بما لديه من شجاعة وذكاء .

وهنا يخبرنا مؤرخو العرب كيف خدع مسلمـــة حتى سمح له بتموين المدينة ، وامدادها بالطعام بعد ان وقع عليهـا الحصار ولم تكن قد تهيأت له من قبل . فيقول الطـبري ان لاوون كتب إلى مسلمة يعده بتسليمه المدينة صلحاً على ان يدخل اليه الطعام الذي جمعه من حولها ، ليصدق اهلها بأن أمره وأمر مسلمة واحد فيرضوا بالاستسلام . فاغتر مسلمة بوعده وأرسل اليه المؤن الكثيرة .

ويقول ابن العبري ان لاوون وعد مسلمة ان يفتح له العاصمة ولكنه أشار عليه بأن يبتعد بجيشه إلى بعض النواحي لكي يطمئن أهل المدينة ، فيسمحوا بفتحها ، فارتحل مسلمة وتنحى إلى بعض الرساتيق . فبادر لاوون إلى إعداد السفن والرجال ، وتموين المدينة . فلما بلغ الخبر مسلمة زحف بالجيش والأسطول وهاجم القسطنطينية

ونصب لها المجانيق ، ولكنها كانت منيعة الحصون والأسوار فلم تتحلل قلاعها . وقذف عليهم البزنطيون وابلاً من الحجارة والنار اليونانية ، فاصابوا من رجالهم واسطولهم شيئاً جليلاً . والمسلمون لا يفتر نشاطهم ، ولا يقلعون عن الاقتحام والهجوم . فلما رأى مسلمة عظم الخسارة ، وقلة الفائدة من المهاجمات ، رجع يلتزم خطة الحصار ولكنه نسي ان غروره بنفسه وضعف بصره في الأمور تركا للأعداء وقتاً كافياً لاعداد المؤونة والذخيرة . فهل يفيد نطاق الحصار أو يأتي بنتيجة سريعة ، والمدينة ملأى بالطعام عالية الأسوار متينة الحصون ؟

كان مسلمة شجاعاً مقداماً ولكنه مغفل قليل الخبرة ، معتد بنفسه وآرائه ، فما يصلح مثله لقيادة الجيوش . فقد عاد إلى ضرب الحصار على القسطنطينية ، ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ أدركهم الشتاء بصقيعه وثلوجه ، وكان قاسياً جداً تلك السنة ، فلم تتحمله أجسام الجنود ، وهم أبناء السواحل والصحارى ، فمات عدد كبير منهم دنقاً ، وبدلاً من ان ينفد الزاد عند سكان العاصمة بسبب الحصار ، كان نفاده عندهم ، فذبحوا خيلهم ودوابهم ليقتاتوا بهـا ، حتى فني أكثرها ، وبلغت بهم المجاعة ان اكلوا ، كما يخبرنا الطبري ، الجلود وأصول الشجر والورق . ورأى الروم حالتهم هذه فأخذوا يسطون عليهم بعصب البلغار الذين استقدمهم لاوون ، فكان هؤلاء يفاجئونهم غرة ، فينالون منهم ويرجعون ، وكلما انفردوا بواحد اغتالوه ، او بفئة

قليلة فتكوا بها . قال الطبري : « فلقي الجند ما لم يلق جيش حتى كان الرجل ليخاف ان يخرج من المعسكر وحده . » ولم يأتهم المدد إلا في ربيع سنة ٩٩ هـ ، وكان الخليفة سليمان قد مـات ، فجاءتهم السفن بالمؤن والذخـائر ، ولكن الجيش والأسطول لم تبق لهما تلك القوة السابقة . فاخذت حراقات اليونان تنقض على سفن المسلمـين وتقذفها بالنار السائلة ، او تستولي عليها . فازدادت الحالة سوءاً ولم يبق سبيل لمتابعة الحصار ، فأرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة يأمره بالقفول ، فارتد ببـاقي الجيش والأسطول ، وانقضى هذا الحصار العظيم الذي استغرق طوال سنة ٧١٧ م إلى أوائل سنة ٧١٨ م ، ونجت القسطنطينية من خطره كما نجت من خطر الحصار الأول ، فحالت دون نفاذ المسلمين إلى اوروبة ونشر دعوة الاسلام .

فتح الاندلس

دخل العرب فلسطين ففتحت لهم أرض الميعاد أبواب سورية ومصر ، ومشت بالويتهم خفاقة من آسيا إلى افريقية ، فامتد سلطانهم في القارتين ، حيث كان سلطان بزنطـــة من قبلهم ، ووقفوا على شاطىء المضيق بين المحيط والمتوسط ، ينظرون إلى اوربة ، الى القارة الثالثة ، وعلى رأسهم موسى بن نُصير مولى بني أمية ، وبجـانبه مولاه طارق بن زياد يعد حملته ليعبر بحر الزقاق ، ويخوض معركة الجزيرة فيفتح الأندلس للاسلام ، وتلقى مفاتيح اوربة الغربية إلى أيدي دولة العرب الظافرة .

خضعت مصر لعمرو بن العاص فأقره عليها عمر بن الخطاب ، فلم تقف مطامحه عندها وقد عبّدت له الاسكندرية بعد استسلامهـا طريق شواطىء المغرب فزحف اليها بجنده مفتتحـاً برقة وزويلة وطرابلس الغرب .

وكانت حدود افريقية في تعريف العرب يومئذ تمتد من طرابلس شرقاً إلى طنجة غرباً فالمحيط الأطلسي . ومن المتوسط شمالاً إلى الرمال التي في اول بلاد السودان . فكتب عمرو بن العاص الى الخليفة عمر ، بعد فتح طرابلس يقول له : « انّا قد بلغنا طرابلس وبينها وبين افريقية تسعة أيام . فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا بغزوها . » فنهاه عمر عن اقتحامها مشفقاً على المسلمين ان يوغلوا في مجاهلها .

ويزعم البلاذري انه كتب اليه يقول : « ما هي بافريقية ، ولكنها مفرقة غادرة ، مغدور بها . » ويشرح البلاذري كلام عمر بقوله : « ان أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئاً ، فكانوا يغدرون به كثيراً . وكان ملك الأندلس قد صالحهم ثم غدر بهم . »

فتوقف عمرو بن العاص عن غزو افريقية نزولاً عند نهي الخليفة ، وصارت الخلافة إلى عثمان بن عفان ، فعزل ابن العاص عن ولاية مصر والمغرب ، واستعمل مكانه عبدالله بن سعد ، أخاه من الرضاعة . ثم أمره بغزو افريقية ، وأمده بجيش فيه جماعة من كبار القرشيين ، فأخذ عبدالله يبعث المسلمين في جرائد خيل فيصيبون من أطراف إفريقية ثم يعودون غانمين ، حتى صالحهم بطريقها على الفي الف دينار وخمس مائة الف ، كما يقول الطبري .

ويزيد الواقدي على هذه القيمة عشرين الف دينار .

ولبثت افريقية لا يتناولها الحكم العربي ، ولا تستعمل عليها الولاة حتى عهد معاوية بن حُديج بعشرة آلاف على رأسهم عُقبة ابن نافع الفهري ، فافتتحها سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) واختط قيروانها . فملكها المسلمون حينذاك ، وصارت تابعة لولاية مصر .

وكان على مصر في خلافة الوليد بن عبد الملك ، عمه عبدالله ابن مروان ، فاستعمل على افريقية موسى بن نصير فسار موسى إلى طنجة عاصمة المغرب الأقصى ، فافتتحها سنة ٨٩ هـ (٧٠٧ م) وطرد عنها الكونت جوليان اويليان كما يسميه العرب ، واخضع عصاة البربر فلم يبق في افريقية من ينازعه منهم ولا من الروم . ثم عاد إلى القيروان بعد أن جعل مولاه طارق بن زياد والياً على طنجة ، وترك عنده تسعة عشر الف فارس من البربر وكانوا قد اسلموا . وترك معهم فئة قليلة من العرب لتعلمهم وتعلم من يسلم من أبناء جنسهم القرآن وفرائض الاسلام .

وعني موسى ، بعد أن تم له الأمر في افريقية ، بانشاء اسطول يغزو به جزر البحر المتوسط . وكان الكونت جوليان قد لجأ إلى سبتة (Ceuta) بعد سقوط طنجة وجلائه عنها . فحاصرها موسى بسفنه فامتنعت عليه لشجاعة صاحبها ودهائه كما يقول المقري في نفح الطيب ، ثم لأن اسبانية بعثت اليها بالامداد ، فرجع موسى عنها ولم

يصب منها شيئاً .

ولم تكن سبتة من أعمال اسبانية ، وإنما هي تابعة لافريقية متصلة بها . وما كان الكونت جوليان من عمال ملك القوط ، ولكنه عامل لقيصر بزنطة . إلا ان بعده عن القسطنطينية وقربه من اسبانية حملاه على التودد إلى عاهلها غيطشة (Witiza) فصادقه هذا وصاهره . ولما مات غيطشة وصار الملك بعده إلى رودريك ابن تيوفريد ويسميه العرب لذريق ، حافظ جوليان على علاقاته بالبلاط الاسباني ، والتجأ اليه ملتمساً حمايته عندما غزا موسى ابن نصير افريقية وحاصر سبتة ، فأمده رودريك بالسفن والعساكر ورد عنه المسلمين .

على ان جوليان ما طال به الأمر بعد انتقال افريقية إلى العرب ، حتى أخذ يتقرب إلى المسلمين ويحسن سياسته معهم لما له من سلطة معنوية على مسيحيي افريقية لا يريد أن يتخلى عنها ، فآثر ، لكي يحتفظ بها ، أن ينحاز للفاتح الجديد . ويعلل لويس برتران ، مؤلف تاريخ اسبانية ، سبب خيانته لبلاط طليطلة ان رودريك رأى تذبذب جوليان في سياسته ، فطلب منه ان يبين خطته ويختار سيده ، فاختار موسى بن نصير .

ويلجأ الكاتب الفرنسي الى هذا التعليل لأنه يميل الى انكار حادثة فلورندا دي لاكافا التي يرويها مؤرخو العرب ويجعلونها سبباً

لخيانة جوليان ، وتسهيله للمسلمين فتح الاندلس . فقد كان من عادة الأشراف في اسبانية أن يبعثوا أولادهم الى بلاط الملك الأكبر بطليطلة ، ليصيروا في خدمته ويتأدبوا بأدبه ، وينالوا من كرامته ، حتى اذا بلغوا أزوج بعضهم بعضاً استئلافاً لأبائهم أصحاب الأراضي والاقطاعات ، فتشتد بترابطهم أواصر المملكة .

وكان للكونت جوليان ابنة ساحرة الجمال اسمها فلورندا ، فبعثها الى بلاط رودريك جرياً على خطة اشراف اسبانية ليمكن علاقاته بطليطلة ، فافتتن ملك القوط بالفتاة الحسناء حتى بات لا يصبر عنها ، فراح يتتبع خطاها ويراودها وهي تتفلت منه . فاتفق مرة انها كانت تغتسل في حمامات دي لاكافا على نهر التاج ، فباغتها عارية واستمتع بها قسراً . فكتبت الى والدها تعلمه بما حدث لها ، فغضب جوليان ونقم على رودريك ، واقسم أن يزيل ملكه . ثم عبر بحر الزقاق ، وذهب الى طليطلة يطلب ابنته معتلاً بان أمها مريضة تريد أن تراها قبل موتها ، فسمح رودريك للفتاة بالذهاب وأوصاها بالكتمان .

ويقول المقري : ان رودريك طلب من جوليان أن يأتيه ، اذا جاء مرة أخرى ، بانشط ما عنده من الشواهين والصقور ، لأنه يفضلها على كل ما لديه من الجوارح . فوعده بان يدخل عليه منها ما لم يدخل مثله قط . فلم يفطن رودريك لقوله ، وانما هو

يعرض له بما اضمره من السعي في ادخال المسلمين الى بلاده .

ولا يزال اليوم في طليطلة ، عند مضيق مجـاري نهر التاج ، انقاض خرائب تعرف بحمامات دي لا كافـا . ولكن لويس برتران يرجح انها آثار جسم قديم ، مع انه يعترف بانه اعتمد في تأليف كتابه على المراجع العربية خصوصاً لأن المراجع الاسبانية لا يصح التعويل عليها . والمراجع العربية تثبت وقوع حادثة دي لا كافا ، في حين ان المراجع الاسبانية تضعها بين الأساطير الأدبية .

ثم أخذ جوليان يحرض موسى بن نصير على غزو الأندلس ويصف له خصب أرضها ، وكثرة أموالها ، وسهولة التغلب عليها ، لتخاذل أهلها ، وانقسام بعضهم على بعض ، ووعده بالمساعـدة اذا عقد النية على اقتحامها . ولم يكن الكونت جوليان مبالغاً في ذكر حالة الأندلس وتنافر اهلها ، وقلة مناعتها ، فقد كانت يومئذ أهون بلد على من يقصد غزوها وافتتاحها ، لما يسودها من الاضطراب في السياسة والاجتماع . فقد دخلها القوط سنة ٤١٠ م فازالوا عنها سلطان الرومان وبنوا سلطانهم بعد مذابح دامية ، فلم يستقم لهم امر الا حين تنصر ملكهم ريكاريـــد (Récarède) ، وانتحل المذهب الكاثوليكي .

فعضده رجال الدين وعززوا جانبه . وقابلهم هو بمثل صنيعهم فأطلق أيديهم ومكن لهم النفوذ في البلاد فكانت لهم الكلمة العليا

في الشعب ، وامتلكوا القسم الأكبر من أراضي المملكة . وكان إلى جانبهم الأشراف العسكريون يشاطرونهم النفوذ وملكية الأرض . وكادت تتلاشى طبقة الملاكين الصغار لما فرض عليها من الضرائب الفادحة لسد حاجات الدولة وانعاش بيت المال . وأما طبقة الفلاحين فقد ضربت عليها العبودية المطلقة ، فكانت تشتغل لحساب غيرها من الأشراف والموسرين لتوفر لهم أسباب اللهو والملذات .

وكان في اسبانية عدد كبير من اليهود ، فاضطهدهم القوط ، وأوقعوا بهم مراراً ، ثم حملوهم على الرحيل أو التنصر ، فتعمد منهم نحو تسعين الفاً ليتسنى لهم البقاء ، ولكنهم لبثوا يمارسون سراً عبادتهم وتقاليدهم الدينية . وهاجر جماعة إلى افريقية فنزلوا بين اخوانهم من بني اسرائيل . فلما افتتح المسلمون افريقية نشط يهودها يتآمرون مع اليهود الاسبانيين لاحداث ثورة في اسبانية تمهد غزوها وافتتاحها ، فاتضحت المؤامرة وانتقم القوط من اليهود أشد انتقام .

وكان رودريك ملك اسبانيا قد اغتصب العرش القوطي بعد وفاة الملك غيطشة ، ولم يكن من سلالة الملوك ، وإنما هو رجل نبيل ناصره الرومانيون ورجال الدين ، لأنه وقف لغيطشة ينكر عليه عبثه بأوامر الكنيسة ، ويعارضه في ازدراء الرومانيين ، وقد تعود القوط احتقارهم منذ قيام ملكهم لأنهم طلقاء سيوفهم ،

مغلوبون على أمرهم .

ولكن أبناء الملك الشرعي وأخاه ساءهم أن يغتصب منهم ، ويعتليه مغامر دخيل . فباتوا يتحينون الفرص لاستعادته وخلع مغتصبيه ، حتى بلغهم ما وقع من النفور بين رودريك وجوليان فابحروا إلى سبتة يحثون صاحبها على السعي لإسقاط عدوه فكان ذلك حافزاً له على متابعة تزيين الفتح لموسى ابن نصير .

فاجتمع على تحقيق فتح الأندلس عوامل عدة تذلل عقباته ، فالعرب راسخو الإيمان بان الله ناصرهم وان عليهم نَشر دعوة الاسلام في كل صقع . وقد وطد هذا الايمان في نفوسهم فتوحاتهم المتوالية . ورأوا كنوز الملوك ونفائسهم تلقى غنائم في أيديهم ، فازدادوا حماسة واقداماً . واشتد ساعدهم بما انضم اليهم من الشعوب التي انتحلت الإسلام ديناً وجاهدت معهم في إعلاء كلمته . وهم شجعان أشداء مخشوشنو الأبدان ، لم تفسدهم الحضارة ، ولا ألانهم الترف ، بخلاف أهل الأندلس فإن الفساد منتشر فيهم ، والانحلال الخلقي متمكن منهم . حتى ان موسى بن نصير عندما أراد ان يحدث الخليفة عن أعجب شيء رآه في الأندلس ، لم يجد ما يحدثه به أعجب من تخنث الأمراء .

وإلى هذه الحياة الخليعة اللينة التي تضعف الروح الحربية في نفس الشعب ، تنضم الحالة السياسية والاجتماعية بما فيها من فساد

وفوضى واضطراب . فالملك القوطي تحوطه الدسائس والمؤامرات يحوك خيوطها الكونت جوليان وأبناء غيطشة من جهة واليهود من جهة ثانية . والشعب منقسم بعضه على بعض ، فالرومان يكرهون القوط المغتصبين ، والقوط يحتقرونهم ولا يرفعون شأنهم . واليهود ناقمون على القوط يدسون لهم ، والقوط يضطهدونهم ، وينكلون بهم . والشعب إجمالاً يشكو الفقر وثقل الضرائب ، واستئثار الأشراف ورجال الدين بالأموال والأعناق .

تلك حالة ، ولا بد ، تطمع المسلمين في اقتحام الاندلس وفتحها ، فلم يستطع موسى بن نصير أن يصم أذنيه عن سماع الكونت جوليان عندما وصف له اسبانية وسهولة التغلب عليها . فكتب إلى الخليفة يستأذنه في غزوها . فأرسل اليه الوليد يقول : « لا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال . »

فكتب اليه موسى انه « ليس ببحر زخار ، وإنما هو خليج منه يبين للناظر ما هو خلفه . » فأذن له الوليد ، على أن يخوضه أول الأمر بالسرايا . فبعث موسى مولى له من البرابرة اسمه طريف ابن مالك النخعي في أربع مائة راجل ومائة فارس ، فحملتهم أربع سفن لجوليان إلى جزيرة الفندال التي تسمت باسم الفنداليين الذين أبحروا منها إلى افريقية ، فقيل لها فندلس » وهي أول أرض دخلها العرب من اسبانية ، فحرفوا اسمها إلى اندلس ، واطلقوا هذا

الاسم على جميع البلدان الاسبانية التي افتتحوها . وسميت الجزيرة باسم « طريف » لنزوله فيها . وأقام بها أياماً ثم رجع بجيشه إلى المغرب ، وقد أصابوا مالاً وافراً ، وسبياً من النساء لم ير موسى وأصحابه مثله حسناً .

ولكن ليس هذا ما كان يتوقعه الكونت جوليان ، فانما هو يرمي الى إزالة ملك رودريك ، فغزوة ورجعة لا يعقبهما الا نتيجة خائبة . فعاد الى موسى يحرضه على اقتحام الاندلس وفتحها حتى أغراه بها ، فدعاه مولاه طارق بن زياد والي طنجة ، فعقد له على سبعة آلاف من البربر ، ليس فيهم إلا ثلاثمائة من العرب . ويعود اختيار موسى للبربر دون العرب الى اسباب منها انهم الكثرة الساحقة التي يتألف منها جيش طارق في طنجة . ثم لانهم يعرفون اسبانية اكثر من العرب ، لقربهم منها وحاجتهم الدائمة الى التردد عليها ، وهي مهددة أبداً بغزواتهم ، لطمعهم في خصبها وغناها وسبيها . ويرجح ان طارقاً بربري لا فارسي ، فالبرابرة اقرب الى طاعته وفهمه من العرب . وقدم لهم جوليان سفنه ، فأقلتهم لخمس خلون من رجب سنة ٩٢ هـ (٧١٠ م) ، فسارت بهم تعبر بحر الزقاق من سبتة الى جزيرة الفندال ، أو الجزيرة الخضراء كما ينعتها العرب لخصبها .

وكانت تاتي بهم دفعات متفاصلة لكي لا يتنبه لهم الاسبانيون

حتى اكتمل عددهم . وجعلوا جبـــل كلبه (Calpé) نقطة الزحف، فقيل له جبل الفتح أو جبل طارق . وسمي بحر الزقـاق مضيق جبل طارق .

وكان اول من قاومهم تُدمير (Teudimer) حاكم الجزيرة ، ولكنه لم يصبر أمـامهم طويلاً بل انهزم الى اشبيلية . وأرسل الى عاهله رودريك يخبره بغارة المسلمين ، وخيانة جوليان . فحشـد رودريك الجيوش ، وكتب الى اولاد غيطشة يدعوهم الى الاجتماع معه على حرب الغزاة ، ويحذرهم من القعود . فلم يجـدوا بداً من اجابته ، فحشدوا انصارهم من القوط ، وقدموا عليـه ، ولكن على نية خذله والغدر به . فولى أحدهم ميمنته والآخر ميسرته لما لهم من المنزلة في نفوس القوط ، ولانه لم يخطر له في بال ان ملوكاً مثلهم يمالئون الغريب على امتلاك ارضهم .

على ان اولاد غيطشة لم يناصروا المسلمين الا لاعتقادهم انهم قوم غزاة سيعودون الى بلادهم بعد ان يملأوا أيديهم من الغنائم . فشدوا ازرهم للتخلص من رودريك . والعرب أنفسهم لم يكونوا موطنين النفس على البقاء في اسبانية عندما اقتحمها طارق بجيوشه . يدل على ذلك حديث رواه المقري لميمون العابد ، وكان في عداد السوريين الذين دخلوا الاندلس . فقد قال لارطباش بن غيطشة : « انـّا قدمنا الى هذا البلد غزاة نحسب ان مقامنا فيه لا يطول ،

فلم نستعد للمقام ولا اكثرنا من العدة . »

ولما انتهت الخلافة الى عمر بن عبد العزيز أراد ان يجلي المسلمين عن اسبانية ، لبعدهم عن اخوانهم في الشرق ، ولانهم محاطون بشعوب غريبة تدين بغير دينهم . ولم يرجع عن رأيه الا بعد أن أقنعوه بأن المسلمين أقوياء في الاندلس ، وانهم منتشرون في كل مكان .

وسار رودريك بجيشه للقاء طارق بن زياد ، قال ابن خلدون انه يبلغ اربعين الفاً ، وقال ابن خلكان انه سبعون الفاً ، ويجعله المقري مائة الف . ويقول كليمان هيوار : « ان جيش الاسبانيين كاد يكون خلواً من الفرسان ، وان أغلب سلاحه العصي والمقاليع . » زد على ذلك حالته المعنوية ، فمن قواد كأولاد غيطشة يريدون الغدر برودريك ، الى قلوب غير متحدة لما بين القوط واليهود والروم من النفور والتباغض .

وكتب أبناء غيطشة الى طارق يخبرونه بانهم سيناصرونه في الحرب للايقاع برودريك المغتصب ملك أبيهم ، على ان يحفظ لهم طارق ضياع والدهم ، فتسلم اليهم آمنة اذا ظفر ، وكانت ثلاثة آلاف ضيعة نفائس مختارة ، كما يقول صاحب نفح الطيب ، فأجابهم الى ذلك وعاقدهم عليه .

وكان طارق قد استنجد موسى بن نصير عندما بلغه

زحف رودريك ، فأمده بخمسة آلاف من البربر تبلغ جيشه اثني عشر الفاً ، سلاحهم حسن ، وقلوبهم متحـــدة على الغزو واقتسام الغنائم .

وهنا لا بد لنا من الاشارة إلى اسطورة رافقت خبر الفتح ، وهي ان طارقاً أمر باحراق السفن قبل أن يبـــاشر الحرب ، وخطب في جيشه خطبته الشهيرة التي يقول في أولها[1] : « أيها الناس ، أين المفر ؟ والبحر من ورائكم والعدو أمامكم فليس لكم ، والله ، إلا الصدق والصبر . » مع ان هذه السفن كانت تسير بامرة الكونت جوليان ، لأنها ملك له ، وليست لطـارق ، أو لموسى ليتصرف طارق في أمرها ويقضي باحراقها . وغير معقول ان يسيء إلى حليفه وهو محتاج إلى معونته .

هذا وان أخبار الفتح تدل على ان السفن لبثت تختلف بـــين

---

(١) قيل ان طارقاً استهل خطبته بقوله : « ايها الناس ! اين المفر والبحر من ورائكم ، والعدو أمامكم فليس لكم والله إلا الصدق والصبر . » وفي العهد القديم ما يشبه هذا الكلام ، فقد ورد في الفصل التاسع من سفر المكابيين الأول ان يوناثان خطب في بني اسرائيل فقال : « ها ان الحرب أمامنا وخلفنا ، وماء الأردن والفياض والغاب من هنا ومن هناك ، فليس لنا من مناص . »

افريقية والأندلس حاملة الامداد والذخائر للفاتحين ، حـافظة خط الرجعة للجنود . وفي ذلك ما ينفي رواية إحراقها . وليس في نفح الطيب ما يثبت هذه الرواية مع عناية صاحبه بتدوين أخبار الفتح على علاتها ، في حين أنه أثبت الخطبة ، وأثبتها ابن خلكان ، دون أن يشيران إلى احراق السفن .

وليس شكنا في الخطبة باقل من شكنا في اسطورة السفن ، فانه لو سلمنا جدلاً بأن طارق فارسي الأصل متعرب لا بربري ، حديث العهد بالعربية والاسلام ، وانـه كان حسن الكلام كما يزعم ابن بشكوال ، فما هو تأثير خطبته في جيش من البرابرة يجهـل العربية في مجموعه ، ولم يزل على طفولته في الدين الجـديد ، تعنى فئة قليلة من العرب بتعليمه القرآن وفرائض الاسلام كما يتعلمها كل شعب غريب إذا أسلم وكان يجهل العربية . ولا يبعد أن يكون فيه من البرابرة الذين لم يتركوا دينهم القديم ، وإنما هم مرتزقة حاربوا مع المسلمين رغبة في الغزو والغنيمـة ، لأن الاسلام لم يغلب على البربر إلا في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وولاية اسماعيل بن عبدالله على المغرب ، كما يذكر البلاذري .

ومما يحمل على الشك في خطبة طارق قوله لجيشه : « وقـد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عرباناً . » فجمع العربان ليس من اللغة الفصحى ، ولا يصح أن ينطق به خطيب في صدر

الاسلام . ثم كيف يجعلهم عرباً وهم اثنا عشر الفاً من البرابرة ليس فيهم إلا ثلاثمائة من العرب ؟ فلا يعقل ان يتوجه بخطبته إلى الفئة القليلة دون السواد الأعظم ، والبرابرة أحوج من العرب المسلمين الى التحضيض والاغراء .

فالخطبة كما يتبين لنا مصنوعة كاسطورة إحراق السفن ، فما يصح الركون اليهما وان اثبتهما بعض المؤرخين .

وبعد ان تلقى طارق الأمداد تقدم بجيشه ومعه الكونت جوليان في حشده يدلهم على المواقع الضعيفة في خطوط العدو وحصونه ، ويتجسس لهم الأخبار . وتقدم رودريك في جيشه يحمي القلب ، وعلى الجناحين أبناء الملك السالف ، فالتقى الفريقان على ضفاف وادي بكة (Wadi - Bekka) من الجزيرة الخضراء ، فالتحموا في معركة حامية دامية ، وإذا بميمنة رودريك وميسرته تتـأخران ثم تنهزمان ، وفي مقدمتهما أبناء غيطشة ، فانكشف القلب من جانبيه ، ولبث رودريك يقاوم حتى اثقلته الجراح فـانهزم لا يلوي على شيء ، والقى بنفسه الى النهر طلباً للنجاة ، فاختطفته الميـاه المتدفقة وغابت به الى حيث لم يعثر له على اثر ، إلا جواده الأبيض الغـارق في الطين ، وعليه سرج من ذهب مكلل بالياقوت والزبرجد ، والا أحد خفيه ، وكان من ذهب مكللاً بالدر والياقوت والزبرجد ، على حد قول المقري وابن الأثير . وانهزم في أثره جيش

القوط بعد قتال ثمانية أيام ، فتم النصر العظيم للمسلمين في رمضان من السنة نفسها .

فبلغ موسى بن نصير ما أحرز طارق من ظفر قريب فحسده وتقدم اليه بأن يتوقف عن الايغال في البلاد ، فعصى طارق أمره وتابع الزحف ، وقسم جيشه اربع فرق فاحتل بها مالقة وغرناطة وقرطبة ثم طليطلة . وبذل اليهود الاسبانيون ما في وسعهم لمساعدته فكان كلما افتتح بلداً عهد اليهم في حراسته ليتمكن من الزحف الى غيره ، فيقومون بمهمتهم أفضل قيام لما هم عليه من الكره للقوط .

فتاذى موسى من عمل طارق وعصيانه أوامره ، وساءه أن يستأثر بغنائم الفتح دونه ، فحشد ثمانية عشر الفاً من العرب والبربر ، وعبر بهم المضيق على كبر سنه ، فاتم الفتح مع طارق ، وقاسمه المغانم ، فنازعه الشطر الأكبر منها . ولكنه لم يستطع أن يشاركه في الخلود ، فان فتح الاندلس يقترن باسم طارق بن زياد لا باسم موسى بن نصير ، ومعركة الجزيرة التي خاضها طارق هي التي قضت على سلطان القوط في اسبانيا ، واقامت مكانه سلطان العرب شجاً في حلق اوربة مدى ثمانية قرون .

عبد الرحمن الغافقي وشارل مارتل
على ضفاف اللوار

ودّع موسى بن نُصير ارض الاندلس طاعة لامر الخليفـة ، وودعها طارق بن زياد قافلاً معه الى سورية ، يتلفت نحو المدن الجميلة التي افتتحها ، وجعلها موطِىء أقدام المسلمين ، فلا يسمع في طريقه الا حيّ على الصلاة ! الله اكبر ! فيغص بريقه ، وقد غمرته موجة من الشعور الدافق ، استسلم اليها ضعيفاً ذلك الجبار العنيـد ... يرى آماله تنهار كلما اجتاز بقعة استولت عليها يده عنوة ، ولم يبق له فيها ما يملكه سوى نقطة جامدة من دمه ، اراقها على ترابها في معاركه الظافرة ، فيقف عندها خاشع الطرف ليبللهـا بقطرة من دموعه . حتى بلغ الجزيرة الخضراء ، فخرج الفاتح العظيم مغلوباً على أمره من حيث دخل غالباً . ومخرت بـه السفينة السوداء عبر المضيق ، وما درى انه سيحمل اسمه مدى الأبد .

وكان موسى قد خلف ابنه عبد العزيز والياً على الأنـدلس ، فجعل مقره في اشبيلية ليبقى قريباً من البحر ، لان المسلمين كانوا لا يزالون على حذر من هذا النصر العـــاجل الذي تسنى لهم ، فلم يأمنوا ارتداد القوط عليهم بابناء الولايات الشمالية . فآثر صاحب السلطان ان يكون سريره قرب الشواطىء فلا ينقطع خط الصلة بينه وبين افريقية .

على ان عبد العزيز كان حسن السياسة والتدبير ، فحين أخذ على عاتقه عمل الاندلس ، عقد معاهدة صلح مع تدمير ملك القوط اعترف فيها تدمير بانه من عمال الخليفة ، ورضي بـدفع الجزية ، واعترف له عبد العزيز بملكه على بلنسية وأوريولة وسواهمـا ، وعاهـده على أن لا يعتدي المسلمون على رعيتـه ، ولا يعارضوهم في دينهم .

ثم أخذ عبد العزيز يجبي الضرائب ويرسلها الى دمشق . ولكن الخليفة سليمان بن عبد الملك كان كارهاً له ناقماً على أبيـه ، فدس عليه من اثار به الجند فقتلوه سنة ٩٨ هـ (٧١٦ م) وهو في جامع اشبيلية ، متهمين اياه بأنه جعل باب مجلسه صغيراً لينحني له الناس ساجدين اذا دخلوا عليه . وقد فعل هذا ارضاء لزوجه الاسبانية ارملة رودريك ، فانها طلبت منه ان يسجـد له الناس كما كانوا يسجدون لبعلها الأول ، فلم يستطع رد طلبها لشدة شغفه بهـــا ،

فاجأ الى هذه الحيلة لئلا يجد المسلمون في صنيعه بدعة اذا حملهم جهراً على السجود .

فلما قتل بقيت الاندلس نحو ستة اشهر وبنو امية لا يبعثون اليها والياً ، فاجتمع زعماء البربر واختاروا أيوب بن حبيب اللخمي ، وهو ابن أخت موسى بن نصير ، فجعل سريره في قرطبة ، وبنى قلعة أيوب على خرائب بِيبَلس . الا انه ما كاد يستقر في ولايته حتى عزله محمد بن يزيد صاحب افريقية ، وولى مكانه الحر بن عبد الرحمن الثقفي . وكانت الاندلس تابعة منذ الفتح لافريقية ، وولاتها اما يرسلهم عامل افريقية ، واما يختارهم الخليفة بنفسه . وكان الحر فظاً قاسياً ، أساء معاملة المسلمين والمسيحيين على السواء فكثرت فيه الشكايات حتى عزله الخليفة ، وولى مكانه السمح بن مالك الخولاني .

وكان الحر قد غزا الفرنجة في مدة ولايته ، فاجتاز البيرينه واستولى على َنربون وضمها الى الاندلس . فاقتفى السمح أثر سلفه ، فجهز جيشاً لجباً الى تولوز وضرب عليها الحصار الخانق ، فكادت تستخذي اليه لو لم ينجدها الكونت أودو دوق غسقونيا بقوات ساحقة ، فنشبت معركة طاحنة في ١١ أيار ٧٢١ م (٩ ذو الحجة ١٠٢ هـ) فقتل السمح ، وتمزق جيشه ، ولو لم يتداركه القائد الحازم عبد الرحمن الغافقي فيجمع شمله جهد المستطاع ، ويرتد به

الى نربون بمهارة رائعة ، لكانت الخسارة أعظم .

ويقول كليمان هيوار ان هذه المعركة حدثت على طريق روماني قديم ، فعرفت بغزوة بلاط الشهداء . وروى صاحب نفح الطيب عن ابن بشكوال ان هذه الوقعة مشهورة عند أهل الاندلس بوقعة البلاط .

واكبر الجند شجاعة عبد الرحمن وحزمه ، فاختاروه لولاية الاندلس . ثم جاءه تثبيت من الخليفة ، فقام بها خير قيام . الا انه لم يسلم من الحساد فراحوا يرمونه بالاسراف ويشكونه الى والي افريقية حتى عزله وولى مكانه عنبسة بن سُحيم الكلبي ، فاستقامت به الاندلس وضبط أمرها ، ثم غزا بنفسه ارض الفرنجة ، فاغار على شاطىء الرون حتى بلغ ليون . وفيما هو يجتاز النهر راجعاً اصابه سهم فقضى على حياته .

وتتابع بعده الامراء حتى عادت الولاية الى عبد الرحمن الغافقي ، فاستبشر به اهل الاندلس ورحبوا بقدومه ، فنشط في بدء امره الى تدبير البلاد وتعهد شؤونها بالرعاية والعدل . فجبى الضرائب على أساس المساواة . واصلح الجيش منظماً فرقه وقواده . وحصن المواقع والثغور الشمالية . ثم اخذ يدعو الى جهاد الفرنجة ، ويحشد لهم الجيوش .

وكان عثمان بن ابي نسعة الخثعمي أحد زعماء البربر عاملا على

الولايات الشمالية من قبل الأمير عبد الرحمن، فحدثته نفسه بأن يستقل بولايته، وينبذ طاعة اميره، لما بين العرب والبربر من الخلاف والتنافس. فقد كان البربر يعتدّون بانفسهم لأن الفاتح منهم والفتح تم على يدهم، ويرون انهم أولى من غيرهم بالأحكام.

غير ان العرب لم يفسحوا لهم في المجال، بل استأثروا دونهم بالجاه والمناصب، فحقدوا عليهم، وناصبوهم العداء. وسمت نفوسهم إلى الاستقلال بالولايات التي كان أمراء العرب يستعملونهم عليها، كما سمت نفس ابن ابي نسعة ان يستقل بالولايات الشمالية، فحالف الدوق أودو وهادنه ليستعين به على امير الأندلس. فأزوجه الدوق ابنته لمباجية ليأمن به خطر الجنوب إذا هاجمه المسلمون، ويستنجده على خطر الشمال إذا عاود الكرة عليه عدوه شارل مارتل، فهاجمه ليزيل سلطانه.

ولكن عبد الرحمن لم ينم لهذا التحالف، ولا ارتضى بمهادنة الدرق، فبعث جيشاً من قبله يحتل الولايات الشمالية، فقاومه عثمان أمام عاصمته الباب (**Puycerda**) على البيرينه، فلم يستطع الثبات دونه فولى هارباً، فطارده الجيش حتى أدركه عند عين ماء في الجبال، فدافع ابن ابي نسعة عن نفسه مستبسلاً. ثم رأى زوجته لمباجية تساق سبية ذليلة، فاستولى عليه اليأس فالقى بنفسه في هوة عميقة قادته إلى دار القرار.

وذعر الكونت أودو حين بلغه ما نزل بصهره وحليفه ، فنادى بالنفير ليغزو الولايات الشمالية ، فبادره عبد الرحمن بجيش لجب ، يبلغ ثمانين الفاً أو يزيد ، فاجتاز البيرينه ، وزحف إلى اوش وبازاس ، فتبعه أودو يحاول رده ، فهزمه عبد الرحمن وطارده الى عاصمته بوردو ، فتحصن فيها ، الا انها لم تغن عنه شيئاً فسقطت بيد الغازي ، وهرب الكونت يستجير بعدوه شارل مارتل .

وكانت جموع الفرنجة تضطرب في الشمال وتحس بالخطر الداهم بعدما اصاب فرنسا الجنوبية ما أصاب . فقد وقع معظمها في ايدي الفاتحين . وكان الملك عليهم يومئذ تيودوريك الرابع . ولكن شارل مارتل وزير القصر هو صاحب السلطة الحقيقية ، يسيطر بها على الملك المتوج ، واليه يرجع في معضلات الأمور ، فهب يحشد العساكر من الفرنجة والقبائل الجرمانية المرتزقة حتى تأتى له جيش عظيم ، ولكنه مختل النظام ، فاكثره لم يزل على الفطرة يكتسي جلود الذئاب ، شعوره الشقر منسدلة على اكتافه العارية ، فيه شجاعة وجرأة على غير تدريب وترتيب .

وانضم اليهم أودو بجيشه متفقاً مع عدوه على حرب المسلمين . والمسلمون في تقدم مستمر ، تتساقط أمامهم القلاع والمدن ، فما تردهم الأسوار والحصون . يزحفون من الجنوب إلى الشمال فيغيرون

على الجانب الغربي ، يخترقون الجبال ، ويعبرون الأنهر ، ويمتلكون الجسور ، فيفتتحون إقطاعة غسقونيا بجملتها ويزيلون عنها ولاية الدوق . ثم ينفذون صعداً في الشمال الغربي ، فيبلغون بواتيه ، فيهاجمونها ويستولون عليها وينتهبونها . ثم يقتحمون قلب فرنسا مغيرين على ضفاف اللوار ، فتعترضهم تور ، فيلقون عليها الحصار ، فلا تلبث أن تستكين لهم فيصيبها ما أصاب اختها بواتيه بالأمس . ويحدق الخطر باورليان ، مهدداً باريس . وشارل مارتل يسير بجيشه متباطئاً ليدعهم يوغلون في البلاد ، فيبتعدون عن قواعدهم .

فلما سقطت تور كان جيش الفرنجة قد بلغ اللوار ، وجيش المسلمين يتهيأ لعبوره ، فتراجع عبد الرحمن إلى السهل المنبسط بين تور وبواتيه ليتسع عليه المجال ، وعبر شارل النهر غربي تور ، فالتقى الجيشان في تلك البقعة الفسيحة التي قدر لها أن تقرر مصير أوربة ، وتضع حداً للفتوح العربية ، فتنقذ الغرب من مخالب الشرق .

جيشان تعادلا في الجرأة والاقدام ، وتعودا خوض المعارك وتحدي كالحات المنايا . وتعادلا في كثرة العدد وحسن القيادة ، فإن شارل مارتل لم يكن دون عبد الرحمن خبرة في الحروب ، ودهاء في وضع الخطط ، وتسيير حركاتها . الا ان الجيش العربي كان أوفى تدريباً من جيش الفرنجة . فقد خلا من أمثال العصابات

الجرمانية التي كانت تجهل الحروب المنظمة مع ما فيها من قوة وبطش وميل غريزي إلى الكفاح . على ان وجود البربر فيه اضعف معنوياته واخلّ بعري اتحاده وتضامنه . فهم يكرهون العرب كما ذكرنا . وقد ملوا الحرب بعد ان امتلأت أيديهم من الغنائم . فودوا لو يرجعون الى أوطانهم ، يتمتعون في طمأنينة النفس بما أصابوا من سبي ومال . وهم لا سابقة لهم في الإسلام وليس لهم ما للعرب من مثل أعلى يدفعهم إلى الجهاد لرفع الراية العربية واظهار الدين الجديد .

وكان العرب يجرون وراءهم من الغنائم أوفر مما يجر البربر . ولكن نشوة الفتح وعز الاسلام كانا يجددان الحمية في نفوسهم لمتابعة الغزو ، وموالاة الجهاد ، فاختلفت نفسية الجيش ، من هذه الناحية ، باختلاف أهواء عنصريه . وان اتفق العرب والبربر على استصحاب الغنائم معهم ، وابوا ان يتخلوا عن بعضها ، أو يتركوه في المدن التي افتتحوها فيخففوا عنهم أثقالها ، فقد شغلت هذه الغنائم قسماً من الجيش لحراستها . وكانت عظيمة جداً ، فيها النساء والأولاد والأموال : غنائم مدن وقرى عديدة افتتحوها في طريقهم واقتسموا اسلابها .

ولم يفت عبد الرحمن ضرر وجودها في الجيش وهو يتأهب لخوض معركة طحون فحاول اقناعهم بترك بعضها ، فرفضوا

وكادوا يشغبون عليه ، فسكت عنها على مضض ، وخال بعض الشر أهون من بعض .

وكانت مواكب الفرنجة في كثرتها لم تزل على طراوتها مــا قاتلت بعد في موقعة تنهك قواها ، وتستنزف من رجالها وعتادها ، إلا ما كان من عساكر الكونت أودو ، وهي لا تقـاس بالجيوش العديدة التي حشدها شارل مارتل . مع ان جيش العرب في مجموعه قاتل في عدة مواقع قبل معركة بواتيه : فبذل غير قليل من قواه ، ولقي أشد النصب في الزحف واجتياز المدن والأنهر والجبـال . ولكن لم يفتر نشاطه ، ولا ضعفت عزائمه لولا تلكؤ البرابرة ، لأن النصر تلو النصر زاده حماسة واندفاعاً ، وبعث فيــه قوة غريبة ، فما اطل عليه جيش الفرنجـة وعسكر ازاءه حتى باداه عبد الرحمن بالهجوم ، فحمل الجيش العربي دفعة واحـــدة ، فاستقبله شارل مارتل بحملة معاكسة فـاشتبك الفريقـان ودارت رحى القتـال .

وكافح العرب والفرنج كلاهما بشدة واستبسال ، فلم يلح بارق النصر لأحدهما حتى هبط الليل ، فافترقا على تكافؤ لا غالب ولا مغلوب . وفي اليوم التـــالي عادوا الى التلاحم ، فوجه الاكوتيون أصحاب الدوق حملتهم على حرس الغنائم . وهذه غنائم بلادهم فيها نساؤهم وأبناؤهم وبناتهم ، ونفائسهم . فاخترقوا خطوط دفاعهـا ،

وأوقعوا الذعر فيها ، فارتفعت الجلبة وتعالى الصياح ، فتسارعت فرسان البربر للدفاع عن اسلابها منفصلة عن الجيش المقاتل ، وتلاحقت بها فرسان من العرب ، فانثغرت الصفوف الاسلامية ، وانكشفت مقاتلها للعدو ، فاحس عبد الرحمن بنزول الكارثة فبادر يلم الجيش من ناحية ويدافع عن الغنائم من ناحية أخرى ، معرضاً نفسه لأسنة الاعداء في تحوله من مكان الى آخر ، حتى سقط صريعاً وقد خرقته الحراب . فارتبكت العساكر الاسلامية بعد مقتل قائدها ، وانهارت عزائمها ، فصارت تكافح على غير نظام ، يائسة متفككة الاوصال .

وأدرك شارل مارتل ما حل بها ، فرماها بنخبة فرسانه وشدد عليها الضغط ، فقاتلت صابرة مستميتة ، وسيوف الفرنجة وحرابهم تأخذها من كل جانب ، فتساقطت في الميدان جثثاً واشلاء غارقة في الدماء . وفقد العرب في هذه المعركة خيرة أبطالهم وساداتهم ، وفجع الجيش الاسلامي بالعدد الاكبر من رجاله ، حتى ارخى الليل ازاره بين العسكرين فافترقا على غالب ومغلوب . وانتظر المسلمون هدأة الليل فتقهقروا تحت استاره ، قافلين الى مواطنهم تاركين للفرنجة ما بايديهم من الغنائم . وعلى الارض جرحاهم تئن بين القتلى الى أن ينقذها الحمام .

قال المقري في نفح الطيب : وأصيب عسكر عبد الرحمن في

رمضان سنة ١١٤ هـ (تشرين الأول ٧٣٢ م) في موضع يعرف ببلاط الشهداء . وبه عرفت الغزوة . وذكر مثل ذلك ابن بشكوال مع انه اطلق هذا الاسم على غزوة السمح ، وجاراه في ذلك كلـيمان هيوار كما تقدم . ولكن ابن حيان يخصه كالمقري بغزوة عبـد الرحمن ، وهي به أولى لكثرة ما قتل فيها من المسلمين . وأنقـــذت معركة بواتيه أوربة الغربية ، كما انقذت أسوار القسطنطينية أوربة الشرقية لأربع عشرة سنة خلون . ولو وفق مسلمة بن عبد الملك في حصار عاصمة البزنطيين ، ثم وفق عبد الرحمن لدحر شارل مارتل وعبور اللوار ، لكان التقى الجيشان الأمويان الزاحفان من الشمال والجنوب ، ووقعت أوربة بأسرها في قبضة المسلمين والاسلام .

معركة الزاب

عاد العرب والفرس فـالتقيا للقتال في ارض العراق ، لا في القادسية كالمرة الأولى ، ولكن قرب الموصل ، على ضفـاف الزاب الأعلى ، النهر المجنون ، كذا ينعتونه لسرعة جريانه . التقى الغالب والمغلوب لا على توحيد وشرك كما التقيا منذ ست عشرة سنة ومـائة ، بل على إسلام جامع وانما تشوبه سياسة مفرقة . فقـد ترك الفرس دينهم القديم ، واهملوا لغتهم الأصلية ، لينتحـلوا الدين الجـديد ، ويتعلموا اللغة العربية ، رجاء ان يجدوا المساواة عنـد العرب المنتصرين ، إذا جمعهم اليهم دين واحد ولسان واحد .

غير ان العرب الفاتحين أسكرتهم نشوة الظفر وعز السلطان ، فباتوا ينظرون إلى كل عجمي ، فارسياً كان او غير فارسي ، نظرة إزدراء واحتقار . فأمض الأعـاجم ، ولاسيما الفرس الذين أسلموا

وحسن اسلامهم ، وأخذوا العربية وحسن بيـــانهم ، ان يهونوا على العربي فيأنف ان يزوجهم بناته وهو يتسرى ويستمتع بنسائهم وساءهم ان يروا من خلفاء بني أمية إيثاراً للعرب ، وتعصباً على العجم .

فقد كان المولى منهم يساق إلى الحرب ماشياً لا يعطى غنيمة ولا فيئاً . فتولد في نفوسهم كره شديد للعنصر العربي الذي أخـــذ يتحضر من حضاراتهم القديمة ، فتألفت منهم جماعـة الشعوبية تضم اليها أبناء الشعوب المقهورة ، مسلمين ونصارى ويهوداً ومجوســاً وزنادقة ، متحدين على بغض العرب والتنقص من أدبهم ، وتشهـير مثالبهم ، وتفضيل العجم عليهم ، عاملين يداً واحدة على خـــذل الخلفاء الامويين وقلب النظام السياسي القائم على تعزيز العروبة .

وتواطأ غير المسلمين منهم على اذية الخلافة نفسها والدس للدين . ولكنهم كانوا ضعافاً في شباب الدولة الأموية ، فلم يرتفع لهم صوت حتى آنسوا الضعف في جسمها ، والانحلال في اعضائها ، فثار الفرس عليها ، ونصروا بني العباس في موقعة الزاب على امل ان يكونوا لهم خيراً من الأمويين وأبقى .

ولم تكن الشعوبية وحدها تسعى لاسقاط الأمويين ، بل تألب على مناوأتهم أحزاب مختلفـــة الأهواء ترمي إلى هدف واحد ، كالخوارج والزبيريين والعلويين ، فكان العصر الاموي عهد ثورات

وحروب وفتن ، فلم يبت خلفاؤه ليلة الا على عصيان يتـأهبون لقمعه أو على مكيدة يحاولون ردها . وكان لهم في بـدء أمرهم من القوة والسلطان ما مكنهم من نحور أعدائهم ، ولكن لم يلبثوا ان تسلل الضعف اليهم لتفاقم الثورات من جهة ، ثم لانغماسهم في الترف من أخرى ، وقلة عنايتهم بتدبير المملكة وانتقاء عمالها ، ثم مـا أصابهم من شقاق واختلاف ، فإن امراءهم أخذ بعضهم يكيد لبعض فأضعفوا شأنهم ، واطمعوا الناس فيهم .

ويعود سبب هذا الشقاق الى نظام ولاية العهد ، فإنه كان يثير الضغائن بين الأخ وأخيه ، فضلاً عن القريب وقريبه . فان الخليفة كان يعقد الولاية في حياته لاثنين أو ثلاثة من أولاده ، او لولده وأخيه ، فاذا استخلف ولي العهد الأول استبد بالأمر وحاول خلع الثاني لينقل الولاية الى بنيه ، فِعل هشام بن عبد الملك فـانه بالغ في التشنيع على ابن اخيه الوليد بن يزيد ، ورميه بالكفر والفسوق ، وتنفير الناس عنه ، لأن ولاية العهد كانت له من بعـده ، وهو يريدها لابنه . فاساء الى سمعته حتى اذا انتهت اليه الخلافة بعـد هشام ، أحاطت بها الثورات والدسائس يحوك خيوطهـا الأهل والأقرباء ، فقتل الخليفة بعدما قل ناصروه ، فكان مقتله شؤماً على بني أمية ، لأن الناس طمعوا فيهم ، واجترأوا عليهم ، فـأخذوا يثيرون بعضهم على بعض ليزيدوهم ضغينة واختلافاً ، فلم يقم خليفة بعد الوليد الا خرج عليه بعض ابناء عمه ، وحـاربوه ونازعوه

الامامة ، فاضعفوا سلطانهم بشقاقهم ، واعانوا اعداءهم على كسر شوكتهم وازالة ملكهم .

فاجتمعت عليهم الاحزاب المختلفة مع ما بينها من تباعد الرأي والسياسة ، فكان سبب زوال ملكهم كما قال بعض الامويين : اختلاف فيما بيننا واجتماع المختلفين علينا .

وقد استطاع الامويون ان يقضوا على حزب الزبيريين في خلافة عبد الملك بن مروان ، وتمكنوا من قمع فتن الخوارج المتتابعة وتقتيل زعمائهم ، ولكنهم لم يقووا على اخماد جذوة التشيع للعلويين ، ومنع اضطرامها في نفوس جماعات من الصحابة والتابعين ، مهاجرين وانصاراً ، وامتداد لظاها مندلعة الالسن في العراق وخراسان ، ولاسيما بعد مقتل الحسين بن علي في كربلاء ، فقد استفظع الناس اجتراء الامويين على ابن بنت الرسول ، فتعاظم عدد المتشيعين ، وازدادوا حماسة وتعصباً لعلي وابنائه ، ونقمة على بني امية .

الا انهم لم يحفظوا وحدتهم بل انقسموا فرقاً متعددة اعظمها الامامية ، وهي التي تحصر حق الامامة بابناء فاطمة بنت النبي . ثم الكيسانية والراوندية ، وهم القائلون بأن الامامة بعد الحسن والحسين تحولت الى أخيهما محمد بن الحنفية ، ثم انتقلت من بعده الى ابنه عبدالله ابي هاشم . فخالفوا بذلك الامامية التي بايعت

عبدالله بن حسن بن الحسن ابن علي . وكان ابو هاشم عالماً جليلاً فوفد يوماً على سليمان بن عبد الملك وهو خليفة ، فرأى منه سليمان فصاحة ولسناً ، وقوة وعلماً ، فخافه لعلمه بطمعه في الخلافة ، فأرسل اليه من يدس له السم في أثناء رجوعه الى المدينة .

فلما شعر أبو هاشم بالسم ، وهو في بعض الطريق عرج على الحُميمة من أعمال البلقاء في الشام ، وفيها ابن عمه محمد بن علي ابن عبدالله بن عباس ، فنزل عنده ، واوصى له بالخلافة من بعده مخافة ان يموت وتضيع البيعة وهو بعيد عن اهله . فانتقلت الامامة من العلوية الحنفية الى بني العباس ، والتف حولهم الكيسانية والراوندية عملاً بوصية ابي هاشم ، يبثون لهم الدعوة من العراق الى خراسان .

وكان بدء الدعوة العباسية سنة ١٠٠ هـ (٧١٨ م) في خلافة عمر بن عبد العزيز . فإن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس بعد ان أخذ الوصاية من ابي هاشم انشأ يؤلف الجماعات السرية ، ويوجهها الى العراق وخراسان ، وجعل على رأسها ميسرة احد زعماء الدعوة العلوية ، فاختار اثني عشر نقيباً ، وجعل تحت ايديهم سبعين رجلاً يأتمرون امرهم ، واوصاهم ان يولوا وجوههم شطر خراسان لأنها اصلح من غيرها لنشر الدعوة .

وقد احسن محمد باختيار خراسان لأن الأمصار العربية كانت

تشغلها الأحزاب السياسية ، وكل حزب يسعى لنفسه. أما خراسان فإن الفرس فيها يكرهون العرب وبني أمية ، ولكنهم لا يطمعون في الخلافة . وهم شيعيون في كثرتهم ، غير أنهم لا ينفرون من بني العباس لأنهم هاشميون من آل البيت .

وهناك الشيعة الراوندية صاحبة النفوذ تناصرهم أشد المناصرة لأن الوصاية انتقلت اليهم بعد موت أبي هاشم . وهناك ايضاً قبيلة بني خزاعة العربية، تتشيع من عهد طويل للهاشميين وتتعصب لهم ، وهي تملك في خراسان قرى ومزارع كثيرة يمكن استخدامها للثورة ونشر الدعوة .

فسار ميسرة إلى الكوفة وجعلها مركزاً للدعوة ، واختار مرو عاصمة خراسان مكان نشرها فوجه اليها رجاله ، فراحوا يبثون الدعوة سراً سنة ١٠٢ هـ متظاهرين بالتجارة وطلب الرزق ، فتأدى خبرهم إلى عامل خراسان ، فاستدعاهم وسألهم عن أمرهم فقالوا : نحن أناس من التجار . وانكروا أن يكونوا دعاة . ثم جاء بعض أهل خراسان من ربيعة واليمن ، فشهدوا فيهم شهادة حسنة وكفلوهم عند الوالي فخلى سبيلهم .

وفي سنة ١٠٥ هـ (٧٢٣ م) قدم الكوفة بكير بن ماهان ، فلقي فيها ميسرة وغيره من الدعاة ، فذكروا له امر دعوة بني هاشم فاتفق معهم وانضم اليهم ، فلما توفي ميسرة اقامه محمد بن علي مكانه

على رأس الدعاة في العراق وخراسان ، فشرع يبعث الرسل والنقباء إلى الولايات .

ولكن الدعوة العباسية لم يكتب لها النجاح إلا على يد أبي مسلم الخراساني ، وان كان الذين تقدموه مهدوا لها السبيل وهيأوا الأفكار لقبولها . وأبو مسلم هذا نشأ في الكوفة يتيم الأب فتعهد تربيته عيسى بن معقل العجلي ، فاشتراه منه بكير بن ماهان باربع مائة درهم سنة ١٢٤ هـ (٧٤١ م) وضمه اليه .

وفي السنة التالية توفي محمد بن علي فانتقلت الامامة إلى ابنه ابراهيم . فوجه ابراهيم سنة ١٢٦ هـ بكير بن ماهان إلى خراسان ليدعو الناس إلى مبايعته بعد أبيه ، فسار بكير إلى مرو وجمع النقباء ومن بها من الدعاة ، فنعى اليهم الامام محمداً ودعاهم إلى مبايعة ولده إبراهيم ، فبايعوه وبعثوا اليه بالهدايا والنفقات .

ثم توفي بكير بن ماهان سنة ١٢٧ هـ ، فتوجه من الدعاة الخراسانيين قحطبة بن شبيب وسليمان بن كثير ولاهز بن قريط الى مكة ومعهم أبو مسلم ، فلقوا إبراهيم الامام بالهدايا وقدموا له أبا مسلم ، فأعجبه ذكاؤه ومعرفته ، وتحمسه للدعوة العباسية ، فبعثه سنة ١٢٩ هـ (٧٤٦ م) إلى خراسان وجعله رأس الدعاة .

وكانت خراسان تابعة للعراق يرجع عمالها بشؤونهم إلى امير

البصرة ، وفيها قبائل عربية من مضر وربيعة وازد اليمن ، تتنافس كما كانت تفعل قبل الاسلام ، وتتنازع السلطان والنفوذ . وقد انحازت ربيعة إلى اليمانية مع انها نزارية عدنانية كمضر ، إلا انها كانت تكره المضرية على ما بينهما من النسب ، لأن مضر كانت تفاخرها بالنبوة والخلافة ، فسخطت عليها ، لأنه لا نبي منها ، ولا خلافة فيها . وناصرت اليمانية وشدت ازرها في حروبها مع المضرية ، فأصبحت خراسان موطناً للمنافسات القبلية ، فإذا كان عاملها مضرياً رفعت بنو تميم والرباب رأسها ، وإذا كان يمانياً اعتزت قبائل الازد واعتزت ربيعة معها .

على ان عامل خراسان لم يكن يطيب له مقام فيها الا اذا كانت عشيرته قوية تقوم معه في وجه من ينتقض عليه . فقد ولى هشام بن عبد الملك نصر بن سيار الكناني على خراسان وليست له فيها عشيرة ، فاجتمعت عليه افناء اليمن وربيعة تحاربه لتعصبه للمضرية . فلما جاء أبو مسلم خراسان كانت الحرب ناشبة بين رجال نصر بن سيار من جهة ، وربيعة واليمن من جهة أخرى ، وعلى رأسها جُديع بن علي الكرماني .

وكان نصر قد أساء اليه وحبسه ، فغضبت الأزد وتعصبت له ، وكلمت فيه نصراً ولم تزل تسعى لخلاصه حتى أطلق سبيله ، فراح يؤلب قبائل اليمن وربيعة للفتنة عليه . فانتهز أبو مسلم

الفرصة فنزل في ضواحي مرو واخذ يكيد للعدوين عاملاً في زيادة الخلاف بينهما ، يخدع المضرية بانه معها على اليمانية ، ويخدع اليمانية كما يخدع المضرية .

ويكتب الى نصر ان الامام قد اوصاه به ، ويكتب الى الكرماني بمثل ذلك ، حتى اصبح هوى الفريقين معه . وهو في الوقت نفسه يدعو الناس الى مبايعة الرضا من بيت الرسول دون ان يسمي احداً ، لتكون الدعوة مشتركة بين العلويين والعباسيين فيأمن معارضة الشيعة الامامية . فأقبل الناس على دعوته وكثر أتباعه . فخشي نصر مغبة الأمر وكتب الى الخليفة مروان بن محمد يخبره بحال ابي مسلم وكثرة من معه . وضمّن الرسالة أبياتاً من الشعر يقول فيها :

أرى خلل الرماد وميض نار
ويوشك ان يكون لها ضرام
فان لم يطفها عقلاء قوم
يكون وقودَها جثث وهام
فان النار بالعودين تذكى
وان الحرب اولها كلام
فقلت من التعجب : ليت شعري
أأيقاظ أمية أم نيام ؟

فتخاذل مروان عن انجاده وكتب اليه يقول : « ان الحاضر يرى مـا لا يرى الغائب ، فاحسم انت هذا الداء الذي قـد ظهر عندك . »

وكان مروان يومئذ في حران مشتغـــلاً بحرب الخوارج في الجزيرة وغيرها . وقد نهكت الثورات والفتن قوى جيوشه ، وهو لم يصل إلى الخلافة الا بعد ثورة هاجها على ابن عمه الخليفـــة السابق حتى خلعه وانتزع العرش منه . ذلك انه لمـا قتل الوليد ابن يزيد بن عبد الملك ، بتحريض أهله واقربائه سنة ١٢٦ هـ ، صارت الخلافة بعده الى ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، فما كان منه الا ان اعتقل الحكم وعثمان ولدي الخليفـة المقتول ، وحبسهما في سجن دمشق مخافة ان يطالبا بحقهما في الخلافة . فثار مروان ابن محمـــد على ابراهيم سنة ١٢٧ هـ ، يعاونه يزيد بن هُبيرة ، فوجه ابراهيم سليمانـ بن هشام لمحاربته ، فكسره مروان وبايع للغلامين المحبوسين .

ثم تابع زحفه الى دمشق فهرب منها ابراهيم ، ودخلها مروان ظافراً ، وطلب الغلامين فاذا هما مقتولان فدفنهما . وبايعـه الناس بالخلافة . ولكن حمص انتفضت عليه وأبت ان تبايعه فجهز اليها جيشاً ليحاربها ويخمد ثورتها . وفيما هو يحاصرها وقد امتنعت عليه كان الضحاك بن قيس الشيباني ، فقيه الخوارج ورئيسهم ، يراقب

اضطراب الحالة السياسة ، وضعف سلطان الأمويين ، فرأى الفرصة سانحة لأن ينقل الخلافة من مضر الى ربيعة ، فهاجم الكوفة ، فاستولى عليها من يد أميرها عبد الله بن عمر بن عبد العزيز . فهرب عبدالله الى واسط فتبعوه اليها ، واشتدت عليه الحرب ، فاستسلم وبايع الضحاك ، ودخل في البيعة سليمان بن هشام بن عبد الملك .

ثم عاد الضحاك الى الموصل يتمتع بالامامة وقد بايعه عليها اميران من البيت المالك . فكتب مروان الى ابنه عبدالله ان يذهب لمحاربة الضحاك ويرده عن الجزيرة ، فسار اليه عبدالله فالتقاه الضحاك بنصيبين ، وضيق عليه الحصار ، فأسرع مروان لنجدة ابنه ، ومعه قائده يزيد بن عمر بن هبيرة ، فحصلت بين الفريقين موقعة قتل فيها الضحاك سنة ١٢٨ هـ . ثم ولى مروان قائده على العراقيين فلبث يقاتل الخوارج حتى أجلاهم عن تلك الاصقاع .

وجاء كتاب نصر بن سيار الى مروان يخبره خبر ابي مسلم في خراسان ، ومروان مضطرب النفس لكثرة العصاة والخارجين حتى أبناء عمه يأتمرون به ويبايعون الغرباء . فأرسل الى نصر يلقي العبء على عاتقه لأنه لم يدر ماذا يصنع . فكتب نصر الى ابن هبيرة امير العراقين يستنجده ، ولم يغفل ان يلحق الرسالة

بابيات من الشعر شأنه في أكثر كتبه ، لأنه كان ممن يتعاطون النظم حتى في أحرج الأوقات . فتلكأ ابن هبيرة عن إجابة طلبه ، وما كان عليه ان يخذله وخراسان تابعة لامارته ، وهو مسؤول عنها واليه مرجع عاملها . فعاد نصر إلى مروان يستصرخه ويبين له خطر الموقف ، فكتب مروان إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك عامله على دمشق يأمره بحبس الامام ابراهيم ، فأرسل الوليد بعثاً إلى الحُميمة واعتقل ابراهيم سنة ١٢٩ هـ فلما قبض عليه اوصى بالخلافة بعده لأخيه أبي العباس السفاح ، وأمر أهله وانصاره بالمسير إلى الكوفة مركز الدعوة ومقر الشيعة الكيسانية . وحُمل ابراهيم الى حران حيث كان مروان فحبس وقتل في حبسه .

فلما بلغ ابا مسلم ما وقع للامام بعث إلى الكرماني يعرض عليه حلفه فأجابه إلى طلبه ، ولكن نصراً خدعه ودعاه إلى الموادعة فارتضى بها ، واقبل عليه مطمئناً ، فأمسكه نصر وصلبه . فثار ولده علي ، تناصره الأزد ، وهاجم جيوش نصر لينتقم لأبيه ، فوقعت معركة حامية في شوارع مرو سهلت لأبي مسلم دخول العاصمة سنة ١٣٠ هـ (٧٤٨ م) ، وثارت معه قرى خزاعة تعاضده ، وتسند الدعوة .

فنشر السواد ، شعار العباسيين ، في الزينة والأعلام ، فسوّدت مرو وهرب نصر منها إلى نيسابور . ثم جلا عن نيسابور ، بعد

انكسار ولده تميم في طوس . ثم انهار جيشه في جرجـان ففزع الى همذان تاركاً العراق ليس له من يدافع عنـــه ، ومـات في ساوة سنة ١٣١ هـ .

وكان ابراهيم الامام قد ارسل الى ابي مسلم قحطبة بن شبيب الطائي ليقود الجيوش الخراسانية ، فلما هرب نصر من مرو تتبع قحطبة وابنه الحسن الجيش المنهزم ومن انضم اليــه من انصار بني أمية ، حتى تم له النصر في نهـــاوند سنة ١٣١ هـ . ثم قصد العراق لمحاربة يزيد بن هبيرة وحصار الكوفة ، فالتقاه ابن هبيرة عنـــد فم الفوات على ثلاثة وعشرين فرسخاً من الكوفة ، فانتصر عليـــه قحطبة ، ولكنه قتل ساعة انتصاره ، قيل انــــه غرق في النهر ، وقيل بل ضربه معن بن زائدة بالسيف ، وكان معن من اتباع ابن هبيرة ، فوقع في الماء ومات . وخلفه ابنه الحسن ، وهرب يزيد الى واسط فتحصن بها . ودخل الحسن الكوفة ظـافراً ١٤ محرم ١٣٢ (٢ أيلول ٧٤٩) .

ثم قدم الكوفة أبو العباس السفاح وأخوه أبو جعفر المنصور ، ومعهما الأهـــل والانصار عملاً باشارة اخيهما ابراهيم . فقصد ابو العباس دار الإمارة وأظهر دعوته ، فبايعه الناس بمسجد الكوفة الكبير في ١٢ ربيع الثاني سنة ١٣٢ هـ ، ٢٨ تشرين الثاني ٧٤٩ م . ثم وجه اخاه أبا جعفر إلى واسط ، فساعد الحسن بن قحطبة على

حصارها ، وبطش بيزيد بن هبيرة ، وبعث برأسه الى أخيه السفاح (ذو القعدة ١٣٢ هـ) .

كانت هذه الأحداث تتوالى على عرش بني أمية ، ومروان ابن محمد في حران ، يتلقى كل يوم نبأ مشؤوماً اما عن خراسان ، واما عن العراق . حتى خاف عاقبة الأمر ، وقد جاء خوفه متأخراً ، فجهز جيشاً من القوات السورية ، يقول ابن خلدون انه مائة وعشرون الفاً ، وزحف به الى الموصل فنزل على دجلة ، وحفر خندقاً ، فسار اليه أبو عون عبد الملك بن يزيد ، فنزل على الزاب الأعلى . ثم تبعته الامداد من السفاح وعلى رأسها عمه عبدالله بن علي . وبلغ الجيش العباسي على قول ابن خلدون نحواً من عشرين الفاً . فتنحى أبو عون عن الرئاسة لعم الخليفة ، فوجه عبدالله حملة من خمسة آلاف ، فعبرت الزاب الى عسكر مروان ، وقاتلت حتى المساء ، ثم ارتدت فعبرت المخاضة راجعة الى قواعدها .

ولما أصبحوا عبر مروان الجسر ، وامر ابنه عبدالله بأن يحفر خندقاً في أسفل معسكر عبد الله بن علي . فبعث عبدالله بن علي أحد قواده المخارق بن غفار في أربعة آلاف ، فعسكروا على خمسة أميال من جيش عبد الله بن مروان ، فوجه اليهم حملة بقيادة الوليد بن معاوية ، فهزمتهم وأخذت منهم عدداً كبيراً من الأسرى . فزحف عند ذلك عبدالله بن علي بقوة من جيشه ، وعلى ميسرته

أبو عون . وتقدم مروان ومعه ثلاثة آلاف لينجد الوليد ابن معاوية . وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب ، فطلب مروان الموادعة ، فأباها عليه عبدالله بن علي . وكان مروان يريد تأخير الهجوم منتظراً غروب الشمس ، فلم يطعه صهره الوليد بن معاوية ، بل حمل بالجيش السوري على كره من عمه . فالتقاهم عبدالله بن علي بقواته ، ونزل الفرسان عن خيولهم ، فتقاتل الفريقان على الأرض جاثين على الركب مشرعين الرماح . وكان أهل خراسان ينادون : يا لثارات ابراهيم ! وشعارهم : يا محمد يا منصور .

فاشتد القتال بينهم بضعة ايام ، ثم أخذت العساكر السورية تتأخر ، ومروان يحضها على الحرب ، ولكنها كانت على كثرة عددها منهوكة القوى من الحروب السابقة والفتن المتوالية ، وهي في مجموعها لا تقاتل صادقة النية مع مروان بن محمد ، لأن أهواء السوريين أصبحت متقسمة مع تقسم البيت المالك لا تجمعهم تلك القوة المعنوية التي طالما عضدوا بها الأمويين ونصروهم في أحرج مواقف القتال . وكان في جملة من تخاذل عنه صاحب شرطته .

فلما رأى مروان تراجع جيوشه وتركها القتال ، طفق يبذل لهم الأموال بسخاء ليجدد نشاطهم ، فأخذوها منه ثم انكفأوا عنه وتركوه . فقاتل بمن بقي معه حتى تحطمت قواه بعد معركة دامت من ٢ إلى ١١ جمادي الاخرة ١٣٢ هـ (١٦ ــ ٢٥ كانون الثاني ٧٥٠ م) .

ثم انهزم إلى حران ومنها إلى دمشق ، والعساكر الخراسانية تطارده حتى قتل في مصر ، فـأرسل رأسه الى السفاح . فكانت موقعة الزاب قاضية على عرش سورية لترفع عرش العراق ، فزالت الخلافة العربية الخالصة ، وقامت مكانها خلافة عربية يحوطها الاعجام .

واشتفت نفوس الفرس على شاطىء الزاب بعد ان أذلتها موقعة القادسية ، فانبسط نفوذهم في ملك بني العباس ، وتضاءل دونـه النفوذ العربي . واعتز الموالي بعد مهانة ، فإذا بصوت الشعوبيـة يتعالى متحدياً أبناء العرب ، ناشراً مثالبهم ، محتقراً مجتمعهم وآدابهم . وشعرت سورية بالخسارة العظمى فثارت على العباسيين ، ولكن ثورتها جاءت بعد فوات الوقت فلم تجدها نفعاً ، فتلفعت دمشق بحجابها ، لتسفر بعدها بغداد .

موقعة البذ

ما انفك الفرس منذ موقعة القادسية وانثلال عرش الأكاسرة يحنون إلى استقلالهم الفائت واسترجاع المجد المفقود ، حتى كانت وقعة الزاب فانبعثت معها آمالهم ، وأصبحوا وهم في بني العباس ينازعون العرب السلطان والنفوذ ، يستأثرون بالخطط العالية ، فمنهم الوزراء والأمراء ومنهم القواد . وارتفعت بهم أصوات الشعوبية تشيد بمناقب الاعجام ، وتنشر مثالب العرب ، فأين إيوان كسرى من خيام الصحراء ، وحضارة آل ساسان من بداوة قحطان وعدنان :

ولست بتارك إيوان كسرى　　لتوضح أو لحومل فالدخول

بهذا البيت يعبر شاعرهم عن حنينهم إلى دولتهم السالفة ، واحتقارهم لتلك البادية التي أخرجت اليهم شعباً كان يرتزق من

نفاياتهم، فهدّ تالد ملكهم ليبني بحجـــارته ملكه الطريف، . وهذا الشعور فيهم شامل على السواء من أسلم منهم وحسنت عقيـدته ، ومن لبث على مجوسيته القديمة ، أو كان زنديقاً يبطن الكفر ويظهر الاسلام . فغـــير عجيب أن يتحينوا سوانح الفرص ليعودوا ، كما كانوا ، امة مستقلة لها الوجود الخاص .

وقد ظهرت نوازع أهوائهم في انتفاضات متوالية حاولوا بهـا فصل ولاياتهم القاصية عن جسم الخلافة الاسلامية . وحاول مجوسهم وزنادقتهم محو الخلافة وابادتها ليوقدوا بانقاضها بيوت النار . فقـد ثارت خراسان غير مرة على ملوك بني العباس ، فقمعوا ثوراتهـا بالسياسة واللين أو بالقوة والحزم . واستغلت نقمة المأمون على اخيه الأمين ، فعضدته لتثور به على العرب وخليفتهم. والمأمون فارسي من جهة امه ، فهم أخواله يتعصبون له على ابن زبيدة العبـــاسية العربية . ولكن انتقال الخلافة إلى المأمون لم يسكن خواطر الفرس طويلاً ، فقد عادت خراسان تزعج خاطر الخليفة بانتقاضها وعصيانها ونزوعها إلى الاستقلال .

أرسل اليها المأمون طاهر بن الحسين قائده الفارسي ، وناصره على أخيه الأمين . فأقام بها يسكن ثائرهـــا من سنة ٢٠٥ إلى سنة ٢٠٨ هـ (٨٢٠ ـ ٨٢٢ م) ثم جاهر فجأة باستقـلال خراسان ، وقطع الخطبة عن بني العباس . ففظع المأمون بهذا النبـأ ، وكاد

يسقط في يده لو لم يمت طاهر على الأثر ، فحمد الخليفة الله على نعمه ، الا انه اضطر ان يعترف بولاية أبناء طاهر بعــد أبيهم يتوارثون إمارة خراسان . فانتقلت أولاً الى ابنه عبدالله ، فكانت الدولة الطاهرية نواة مملكة فارس الاسلامية الحديثة .

ولم تكن انتفاضات أمراء الفرس المسلمين لتزعج الخلافة وتقض مضجعها بقدر ثورات المجوس ، ومكايد الزنادقة متفقين على قلب الخلافة وإزالة سلطان الاسلام . وكانت بلاد أرمينية وتركستان وأذربيجان وطبرستان مواطن صالحة للعصيان والخروج . فثار بابك زعيم الخرمية في أرمينية وأذربيجان معتصماً بجبال القفقاس . وثار مازيار في طبرستان تحميه رؤوس جبالها . ومال اليهما الأفشين أمير أشروسنة قاعدة تركستان .

غير ان خطر الخرمية كان أشد من غيره ، ولم يسهل على الخلفاء دفعه في وقت قريب ، كما دفعوا خطر مازيار والافشين . فقد ثار شهريار بن شروين في جبال طبرستان ، يسانده مازيار بن فارن ، فهزمه عسكر المأمون سنة ٢٠١ هـ (٨١٦م) ، واقتيد مازيار إلى الخليفة ، فعفا عنه وأعاده إلى امارة طبرستان ، فراح يوالي بابك الخرمي ويؤيد ثورته حتى قتل بابك وتبددت الخرمية .

وكان حيدر بن كاوس المعروف بالافشين قد اظهر الاسلام ودخل في خدمة المأمون ، ثم صار قائد جيوش المعتصم ، فوجهه

إلى بابك الخرمي فقمع ثورته وقبض عليه . غير انه لم يكن صادق الخدمة للخليفة ، بل كان يتاجر بثورة الخرمية ويستغلها ، فماطل ما استطاع في محاربتهم ، وتقاضى أموالاً طائلة مقابل قيامه بهذه المهمة .

قال ابن الأثير : « جعل المعتصم للافشين على كل يوم يركب فيه لحرب الخرمية عشرة آلاف درهم ، وكل يوم لا يركب فيه فيه خمسة آلاف درهم ، سوى الانزال والمؤونة . » وكان يرسل هذه هذه الأموال سراً الى اشروسنة كاتماً بصدره خطة يدبر أمورها لينفذها في وقتها . ولكن هذه التدابير لم تفت عبدالله بن طاهر أمير خراسان فاطلع عليها المعتصم ، وصادر بعض الأموال المهربة متجاهلاً انها للافشين ، وسكت الافشين عنها مخافة أن يفتضح أمره . وكان عبدالله بن طاهر لا يؤمن بصحة اسلامه ، ويخشى شره لعلمه بطمعه في خراسان .

فكثرت سعاياته فيه لدى الخليفة حتى أوغر صدره عليه . الا ان المعتصم تغاضى عنه لحاجته اليه . فلما قمعت الثورة الخرمية ، وانتهت معركة عمورية مع البزنطيين ، عاد الافشين إلى دسائسه لاشعال ثورة جديدة يستغلها ثانية . وكان مازيار صاحب طبرستان تابعاً لعبد الله بن طاهر امير خراسان ، فزين له الافشين أن يمتنع عن تقديم الخراج اليه ، وان يرسله رأساً إلى المعتصم ولو أدى

الأمر إلى الخلاف .

ولم يكن الافشين يحسب ان عبدالله ينهض لمحاربة مازيار ، بل كان يأمل أن تشتعل الثورة في طبرستان فيرسله الخليفة إلى اخمادها فيتسنى له عندئذ الاستيلاء على خراسان . ولكن عبدالله لم يتلكأ عن تأديب العاصي فبعث جيشاً للقبض عليه ، فانتفض ثائراً ودعا الناس إلى مبايعته ، وأمد المعتصم عبد الله بالجنود ، فقبض على الثائر وشتت أصحابه ، وبعث به إلى الخليفة ومعه الكتب التي أرسلها اليه الافشين يحرضه بها على العصيان . فأمر به المعتصم فضرب حتى مات ثم صلبه الى جانب بابك . ٢٢٤ هـ (٨٣٨ م) .

وتبين للافشين بعد هذه الحوادث ان المعتصم تغير عليه فخاف بطشه وعزم على الفرار (٢٢٥ هـ) ، فبلغ الخليفة خبره فأمر باعتقاله فحبس مدة ثم أحضره للقضاء فظهرت علاقته بمازيار وتأكدت زندقته برسائل جاءته من أشروسنة يدعوه فيها أصحابها باله الآلهة . ووجدت عنده أصنام أو كتب للمجوس فأخرجت من منزله . ودل الكشف على انه لم يختتن بعد اسلامه وانما بقي بغلفته . فأرجع إلى سجنه وقطع عنه الطعام والشراب حتى مات . ثم صلبت جثته على باب العامة ، وأضرمت تحتها نار عالية ، فتساقطت قطعاً قطعاً على حد وصف ابي تمام :

طارت لها شعل يهدّم لفحها ... اركانه هدماً بغير غبار

فمات عابد النار محترقاً بآلهته :

صلى لها حياً ، وكان وقودها ميتاً ، ويدخلها مع الفجار

ومهما يكن من أمر الافشين وزندقته وخيانته للخليفة ، فإن أنانيته ، ومطامعه في الملك ، وحرصه على جمع المال ، جعلت منه آلة صالحة لخدمة المعتصم ، ومقاومة الخرمية التي استفحل خطبها ولبثت عشرين سنة تهدد دولة الاسلام . والخرمية جماعة من المجوس المزدكيين يبيحون الأموال وأعراض النساء فيجعلونها مشاعة مشتركة بينهم . ويقولون بان الاله متجسد في شخص امامهم ، وبان لا صوم ولا صلاة ولا حج . فتأويل الصوم ان يصام على ذكر الامام فلا يباح باسمه . وتأويل الصلاة هو الدعاء له . وتأويل الحج هو القصد اليه . وقد انتشر هذا المذهب وراء الجبال القفقاسية من أرمينية وأذربيجان وسواهما ، وانضمت اليه عناصر باطنية حلولية كما يتبين من زعمهم ان الله حل بالامام .

ولم تشعر الخلافة الاسلامية بخطر المذهب الخرمي شعوراً جدياً الا حين قام على رأسه بابك ، وأخذ يتحرك في أرمينية سنة ٢٠٢ هـ (٨١٧ م) يقطع السابلة فيقتل ويسلب ، ويغير على البلاد الآمنة فيعيث فيها فساداً ، وينشر مذهبه الاباحي مرخصاً للناس ان يشاركوا بعضهم في نساء بعض .

واذا عاد بالسبايا والأسرى اغتصب واصحابه السبيات أمام

رجالهن من آباء وأزواج وأبناء . وكان يرمي بثورته هـــذه إلى مقاومة الاسلام ، واعادة السلطان للدين الفارسي القديم . فاستولى على أذربيجان وضمها إلى أرمينية باسطا نفوذه عليهما ، معتصماً بمـــا يحيطهما من الجبال المنيعة ، وما لديه من المـدن الحصينة ولاسيما البذ وأردبيل .

وجعل خطته في الحرب ان يبيت الأعداء ليلاً فيبـاغتهم على غفلة وينال منهم ما يتاح له ، ثم يعود ملتجئاً إلى جباله وحصونه . أو يبث الكمناء في رؤوس الجبال وفي سفوحها بين المغاور والادغال ، فاذا اقترب العسكر الآتي لمحاربته من هذه الأماكن ، انصبّت عليه العصائب الخرمية كالشياطين ترشقه بالسهام ، وتدحرج عليه عجلات فيها صخور كبار ، فمـــا تزال تأخذه من الأعالي حتى يرتبك ويتضعضع ، فتقتحمه بسيوفها وحرابها مجهزة عليه .

ابتدأت حركة بابك الخرمي في عهد المأمون ، وخلافته لم تزل متقلقلة من جراء مقتل الأمين ، فجعل مقره في خراسان ، لأن بغداد ثائرة عليه بعدما أصابها من الخراب في حصار طاهر بن الحسين لها . والعرب غاضبون لأن الكلمة العليا صارت الى الفرس في خلافـة المأمون ، وهم يؤثرون ابن العربية المخلوع على ابن الفارسية الخالع .

والعباسيون في العراق ناقمون على الخليفة الجديد لأنه أراد ، وهو بين الفرس ، ان يتودد للشيعة ، فبايع علي الرضا وجعله وليـــاً

لعهده . ولبس الخضرة شعار العـــلويين وترك السواد شعار بني العباس . فخاف هؤلاء ان تخرج الخلافة من يدهم فبايعوا عمه ابراهيم ابن المهدي ونصبوه خليفة في بغداد ، فحرّجوا به الحالة السياسية على المامون ، وضافروا الفتنة فتفاقمت في العـراق ، وخلقت جواً ملائماً لحركة بابك الخرمي . فثار بأصحابه في أرمينية ، ثم استولى على أذربيجان ، والمامون مرتبك على عرشه المترجرج بين العراق وخراسان . ولكن الأقدار تداركت الخليفة الحازم فمـــات ولي عهده الأمير العلوي سنة ٢٠٣ هـ ، ولم يبايع المامون علوياً بعده . فارتضى العباسيون فبايعوه بالخلافة وخلعوا عمه ابراهيم . فأتيح له بعد ذلك ان يدخل بغداد ويتبوأ عرش آبائه .

إلا ان الأحداث الخارجيـة والداخليـة لم تسمح له ان يتفرغ لمقاومة الخرمية ، فكان يرسل اليها الحملة بعد الحملة ، فيلقاهـا بابك برجاله وينزل بها الويل والخسران . واشهرها الحملة التي قادهـا محمد بن حُميد الطوسي الطائي سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ م) ، فسار بهـا وتجاوز المضايق ، فخرجت عليه الكمائن من الجبال : فبـــددت شمل جيشه ، فلبث يكافح وبعض رجاله حتى سقط قتيلاً في المعمعــة . فكان موتـه على هـذا الشكل من البطولة ، مثيراً لشاعرية نسيبه أبي تمـام ، فنظم في رثائـه قصيـدته الشهيرة التي يقول في مطلعها :

كذا فليجلّ الخطب وليفدح الأمر
فليس لعين لم يفض ماؤها عـذر

ومات المأمون (٢١٨ هـ) ، وبابك الخرمي يبذر الفساد في الأرض ، وينشر الهول على الناس . فلما استخلف المعتصم نشط إلى حرب الخرمية ، فأوقع بهم في همذان وكان لهم معسكر فيها . ولكن أنّى له أن يأمن شر هذه الافاعي ما دامت ممنعة في أجحارها ؟ فوطن النفس على مواقعتها في مكامنها ، ومجابهة الأخطار مهما تكن عليه من الشدة . فعقد للافشين سنة ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م) ووجهه الى الجبال في جيش عديد ، وجعل تحت يده ثلاثة من كبار القواد وهم : أبو سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي ، والهيثم الغنوي ، وعَلَويه الأعور .

فزحف الافشين الى اردبيل ، وكان بابك قد جلا عنها ، وتحصن بعاصمته البذ ليحتمي عند الحاجة باسوارها . وبث كمائنه في الجبال والمنعطفات ، تفتك بالحاميات والطلائع ، وتغير على القوافل الناقلة الميرة من مختلف الجهات إلى جيش الافشين فتستولي عليها ، وتسير بها الى البذ .

فوجه الافشين اهتمامه في بدء الامر الى تأمين ارزاق الجيش . فنزل في برزند وجعلها معسكراً له ، وبينها وبين اردبيل خمسة عشر ميلاً . وانزل أبا سعيد في موضع يقال له خُش ، فعسكر فيه ،

واحتفر له خندقاً . وانزل الهيثم الغنوي في رستاق يقال له أرشق ، قريب من البذ مدينة بابك ، فتحصن به وحفر خندقاً . وانزل علوية الاعور في حصن مما يلي أردبيل يسمى حصن النهر . فكانت القوافل إذا خرجت من اردبيل تكفلت الحامية حراستها الى حصن النهر حيث يحميها علوية حتى تصل الى ارشق فتصبح تحت حماية الهيثم ، فيوصلها هذا الى معسكر الافشين . ثم يحمي القوافل والسابلة التي تأتي من جهة الافشين فيدفعها الى صاحب حصن النهر ، ويدفعها هذا الى أردبيل .

وكذلك يتبادل الهيثم وأبو سعيد حماية القوافل بين خش وارشق فيوصلها أبو سعيد الى الافشين ، ويدفعها الهيثم الى علوية الاعور ليوصلها الى حيث تريد . بيد ان هذه التدابير على ما فيها من دقة وتنظيم لم تمنع بابك من الغارة على القوافل وانتهاب بعضها ، فيتضايق عسكر الافشين وتمسه الحاجة الى المؤونة . غير ان القوافل المتواصلة كانت تتداركه ، فتكشف الكرب عنه ، ولا تدع الضيق يستحكم منه .

وقد استطاع الافشين ان يستفيد من جواسيس الخرمية فيجعلهم عيوناً له على سيدهم ، لانه كان اذا وقع في يده واحد منهم يعفو عنه ويجزل له العطاء ليصير جاسوساً له . فقد بعث المعتصم سنة ٢٢١ هـ القائد ُبغا الى الافشين ومعه المال ونفقات الجيش . فعرف

الافشين من جواسيسه الخرمين ان بابك سيكمن للقافلة ليأخذ المال . وكان بغا قد بلغ حصن النهر فكتب اليه الافشين ان يرجع الى أردبيل ، فما كاد يرجع حتى أغار بابك على حصن النهر فقتل علوية وهزم جيشه . بيد انه لم يظفر بالمال لان بغا كان قد نجا به وعاد الى اردبيل . فأوقف بابك جنده مكان جند علوية ليخدع الهيثم فيدفع اليه القافلة التي تأتي من ارشق فيغتنمها .

ولكن الهيثم عرف جند بابك ، فرد القافلة عن حصن النهر ، واحتمى بحصن ارشق . فحاصره بابك وضيق عليه ، فلبث يقاوم مستبسلاً الى أن جاءه الافشين فانجده ، فانهزم بابك وفاتته الغنيمة من الجانبين .

وأقام الافشين طوال تلك السنة لا ياتي بعمل حاسم في محاربة الخرمية مع ما جاءه من الامداد والمؤن . على انه حاول محاصرة البذ فتقدم بعسكره الى دَروذ على مسافة ستة أميال من مدينة بابك ، فاحتفر خندقاً وبنى سوراً حوله ، وعسكر بالجيش . وكان يريد الاكتفاء بهذا الحصار لو لم يتجهز بغا على غير علم منه فيتقدم نحو البذ ويدخل ضاحيتها فتخرج اليه سرية من عساكر بابك فتقتل جيشه وتهزمه . فيتراجع إلى خندقه متحصناً به . ويكتب الى الافشين يخبره بما حدث له ، فينجده بالرجال ويأمره بمناجزتهم في الحرب الى يوم عينه له يخرج فيه بنفسه الى مهاجمتهم . فلما كان يوم المعين

خرج الافشين من دروز ، يريد بابك ، فـالتقته العساكر الخرميـة فهزمها وتقدم إلى البذ . وخرج بغا من الخندق فصعد إلى جبل يطل على معسكر الافشين ، ويمكن الانحدار منه إلى البذ فيحيط بها من جانب ، في حين يكون الافشين محيطاً بالجانب الآخر . فلما بلـغ الجبل لاحت له من تحته اعلام الافشين وعساكره . فـاطمأن وأيقن بنجاح خطة الالتفاف ، فبات ليلته ينتظر الغد . فتساقط عليه الثلج واشتد البرد ، وانتشر الضباب حتى حجب الجبال والوهاد .

وكان بابك يتوقع مثل هذه الليلة لينقض على عدوه فيأخـذه غرة معتمداً خطة البيات التي تعودتها العساكر الخرمية . فهاجم معسكر الافشين وأوقع به ، فانهزم الافشين إلى حصنه وقد فـــلّ جيشه ، وبغا معسكر في أعلى الجبل لا علم له بما حدث . فلما طلع الصبح ضرب بالطبل وعبى جيشه ميمنة وميسرة ومقدمة ، وهو لا يشك ان الأفشين باق في مكانه . وتقدم حتى صار بلزق جبل البذ ولم يبق بينه وبين ان يشرف على أبيات المدينة إلا صعود نصف ميل ، وإذا بالكوهبانية ، وهم رجال الاستطلاع ، يأتونه بخبر انفضاض عسكر الأفشين ، وظهور طلائع الخرمية عليهم .

فتراجع بغا يطلب النجاة باصحابه ، ولكن الخرمية تتبعوه حتى بيتوهم في الجبل فقتلوا منهم جماعة وأخذوا ما معهم ، وتمكن بغا ان يهرب ببقية جنوده ، لاجئاً إلى خندقه .

وحال الشتاء ببرده وثلوجه في تلك الجبال الجبارة دون متابعة الأعمال الحربية ، فانصرف الناس الى مشاتيهم حتى جاء ربيع سنة ٢٢٢ هـ فتجددت الحملة . ووجه المعتصم الى الافشين الامداد والأموال مع جعفر بن دينار الخياط . فلما وصلت اليه تقدم بجيشه الى كلان روذ ، أي النهر الكبير . ثم جعل يزحف قليلاً قليلاً على طريق المضيق الذي ينحدر الى روذ الروذ .

واقام كراديس تتناوب الحراسة على ظهور الخيل مخافة البيات . فضج الفرسان من التعب ، ومل العسكر البقاء في المضيق . ثم نزل الى روذ الروذ فعسكر بها . وأمر الكوهبانية أن يصعدوا الى رؤوس الجبال فيختاروا فيها مواضع يتحصن بها الجنود . فاختاروا ثلاثة أجبل عليها أنقاض حصون قديمة ، فأرسل الفعلة اليها فحصنوا طرقها ووضعوا دونها الحجارة . واحتل الوادي الفاصل بين روذ الروذ والبذ فأصبح عسكره منتشراً في الجبال والأودية على مسافات طويلة تحجب الفرق بعضها عن البعض .

فإذا اراد الزحف جعل علامته قرع الطبول تنبيهاً للقواد فيزحفون لزحفه ويتوقفون إذا توقف القرع . فمضت اسابيع وهم بين زحف وتوقف ورجوع ، فتضايق الجند من مماطلة الافشين ، وتذمر القواد لتذمرهم .

وكان الافشين يخشى الكمناء الذين أقامهم بابل في عقبة الجبل

المطل على البذ ، ولا يعلم أماكنهم ليتقي مفاجـآتهم اذا اراد اقتحام المدينة . وبلغ التضجر من القواد ان صاروا يتعرضون للخرمية عن غير امره . فهاجم جعفر الخياط بالمطوعة أسوار البذ حتى ضرب بابها ، فخرجت اليه الخرمية من المكامن والاسوار ، ترميه بالنبـال وتدفعه عن الباب ، فارتد منهزماً .

واستفاد الافشين من غارته فعرف مخـــابىء الكمناء . ثم اعاد جعفر الكرة على البذ فاشتبكت الحرب أمام الباب طويلاً وتعلق المهاجمون بالأسوار ، فثبت الخرميـــة دونهم وامطروتهم وابلاً من الحجارة والنبال حتى ردوا جنود جعفر من ناحية ، والمطوعة من ناحية اخرى ، وطرحوهم عن الأسوار .

وكان الافشين قد نصب عرادة مما يلي جعفراً على البـاب ، وعرادة أخرى مما يلي المطوعة من طرف الوادي تقذفان الحجارة على الأسوار . الا ان ضيق المكان لم يدع لجعفر مجالاً فسيحاً يتحرك فيه ، فانكفأ بمن معه الى خندقهم في روذ الروذ .

وعاد الافشين يتجهز اسبوعين بعد معركتي الباب . فلما أكمل عدته بعث عند مغيب الشمس الفاً من الرماة ، ودفع الى بعضهم اعلاماً سوداً وأمرهم ، اذا رأوا اعلامه مرفوعة ، والموقعة ناشبة ، ان يركبوا هذه الأعلام في الرماح ويضربوا الطبول وينحدروا على الخرمية يرمونهم بالحجارة والنشاب . وبعث معهم أدلاء يقودونهم في

الطرق المأمونة ، فأنطلقوا يصعدون جبالاً منكرة صعبة المرتقى ، حتى صاروا خلف جبل البذ الذي يقف عليه آذين قائد الخرمية . ثم توغلوا حتى بلغوا رأسه عند السحر . ووجه الافشين في الليلة نفسها بشيراً التركي ومعه قواد وجنود من فرغانة (مدينة على نهر جيحون في حـــدود تركستان) وأمرهم ان يسيروا في اسفل الوادي تحت ذلك الجبل . ثم بعث الى القواد ان يتهيأوا للركوب في السحر .

فلما كان السحر خرج بالعسكر والنفاطات والشمع . وضرب الطبول ، فأنكر الناس هذه التعبية المبكرة . ثم اخذ يتقدم نحو اسوار البذ حتى احدق بالجبل الذي عليه آذين . فوقف جعفـر الخياط برجاله مما يلي باب البذ ، ووقف أبو سعيد مما يليه ، وبخارا خذاه مما يلي ابا سعيد ، وأحمد بن الخليل مما يلي بخـــارا خذاه . فصاروا جميعاً حلقة حول جبل البذ .

واذا بالضجة ترتفع من أسفل الوادي ، ذلك ان الكمين الذي تحت الجبل تصدى لبشير التركي والفراغنة فاشتبكت الحرب بينهم ، فلما سمع جيش الافشين الضجة اضطرب ولم يعلم سببها ، فـأبلغ الافشين القواد والجنود ان بشيراً والفراغنة يحاربون كمين الخرمية ، فاشتدت عزائمهم .

ورأى الرماة في رأس الجبل حركة جيش الافشين واعلامـــه

المرفوعة ، فركبوا أعلامهم السود في الرماح ، وانحدروا من أعلى يريدون آذين ، فوجه اليهم آذين قطعة من الجند تشغلهم . ولم يغفل الافشين عن أعلام عساكره ، لما رأى الرايات السود تتحرك في أعلى الجبل ، ان هؤلاء هم رجاله ينجدونه على آذين ، فضاعف بذلك القوى المعنوية في القواد والجنود . فحمل جعفر الخياط بعسكره وراح يصعد الجبل الى آذين . وحمل لحملتـــه قسم من عسكر أبي سعيد . ولكنه لم يكن يدري ان أمامه آباراً محفورة ، فتساقطت فيها فرسانه .

فوجه الأفشين الفعلة يهدمون حيطــان المنازل ويطمون بهــا الآبار . ثم حمل الجيش حملة واحدة . وكان آذين قد أعد عجلات عليها صخور كبار ، فاخذ يدحرجها على الفرسان الصاعــدة ، فأفرجوا عنها حتى تدحرجت . ثم عاودوا الكرة يشددون الضغط على جبل البذ فأحاط به المهاجمون والرماة سفلاً وعلواً . فلما رأى بابك ان الخطر محدق به ، وتيقن ان المدينة ساقطة لا محالة ، خرج من باب يلي معسكر الافشين ليطلب الامان ويستسلم .

وفيما هو آخذ بالمفاوضة جاء الخبر بان الفراغة قـد دحروا الكمين ودخلوا المدينة من بابها الغربي وصعدوا باعلامهم فرفعوها على قصور بابك . فلم يبق بعدها مجال للمفاوضات ، فلجأ بابك إلى الفرار باهله مستتراً بالوادي . واشتغل عنه الافشين باقتحـــام البذ

فدخلها بعساكره ، ولبثت الخرمية تدافع امام ابواب القصور وعلى الاسوار دفاع المستميت ، وعساكر الافشين ترميها بالنفط والنار . ثم هدمت عليها القصور حتى ابادت جموعها فاستولت على المدينة بجملتها . ولم يخدم الحظ بابك في فراره ، فان الأرمن قبضوا عليه في بعض الجبال ، وسلموه الى الافشين بعدما ركبوا الفحشاء من أمه واخته وامرأته بين يديه ، فعلوا به كما كان يفعل بالنـاس إذا أسرهم مع حرمهم . فحمله الافشين الى المعتصم ، فأمر به ، فقطعت يداه ورجلاه ثم ذبح وشق بطنه ، وأرسل رأسه إلى خراسـان ، وصلب بدنه بسامراء ، ليكون عبرة لسواه . فمات شر ميتة بعد ان ازعج الخلافة عقدين من السنين وملأ جبال القفقاس رعبـاً وفساداً ، وبموته تبددت آمال دولة المجوس .

وقعة عمورية

كان الامويون يوالون اقتحام الدرب في كل سنة لغزو البزنطيين بكتائب الصائفة التي نظمت لهذا الغرض ، فما تنقطع غاراتها السنوية إلا حين تتفاقم الفتن في المملكة العربية ، شأنها بعد مقتل الحسين وقيام خلافة الزبيريين . ثم في خلافة مروان بن محمد وانتقال الملك إلى بني العباس .

وهكذا كانت حال الصوائف في خلافة العباسيين ، فقد عادت إلى غزواتها على عهد المنصور ، ولكن لم تتسلسل حولياتها بسبب ثورات العلويين . ثم تابعها المهدي بعد أبيه فكانت لها مواقع موفقة بلغت في إحداها خليج القسطنطينية مهددة عاصمة القياصرة . واشتدت وطأتها في خلافة الرشيد ، فقد كان أبو الأمناء ، على ما نقل الطبري وغيره ، يغزو عاماً ويحج عاماً ، فحين ينقطع عن الغزو يزحف بالصائفة كبار أهل بيته وقواده . فهُدّم من بزنطة

الشرقية في أيامه أمنع حصونها ، وخرّبت أحاسن مدنها وقراها . إلا ان الصوائف توقفت غزواتها في خلافة الأمين وفي معظم خلافة المأمون لاحتدام الفتنة بين الأخوين ، ثم لما تلاها من عصيان الأمصار البعيدة ، وثورات الخارجين على السلطان .

ولم تقتصر غزوات الأمويين والعباسيين لأرض الروم على الكتائب البرية وحدها ، بل كانت أساطيلهم تمخر في عباب المتوسط مغيرة على سواحل بزنطة وجزائرها فوفق أحياناً للنزول فيها واحتلالها ، أو تأخذ الجزية منها وتعود بالأسلاب والغنائم .

على ان بزنطة لم تغفل عن الخطر المحيط بها ، وقد بلت مراس أعدائها ، فكانت تقوم بحملات منظمة للرد على غزوات الصوائف ، فتغير على الأمصار الاسلامية المجاورة تثخن فيها وترجع إلى بلادها غانمة ظافرة . ولا تدع الفرصة تفوتها حين تتوقف الصوائف عن الغزو بسبب الفتن والثورات الداخلية ، فتوجه إلى المملكة العربية أعنف الغارات واعظمها وقعاً وانتشاراً .

هذه الغارات المتبادلة بين العرب والروم اضطرت بزنطة إلى تنظيم جيش مسلح دائم تقيمه في بعض الولايات لحمايتها ، وتمنح قائده السلطة العسكرية والمدنية معاً . ويعد هذا الجيش نحو مائة وعشرين الفاً منهم سبعون الفاً لحماية الولايات الشرقية ، والبقية توزع على الحدود الغربية ، وفي فرق الجيش المركزي . يضاف اليهم الفرق

الصحية والهندسية، وعدد عظيم من الخـدم، لأن الجنود كان لهم الخيار في أن يأخذوا العبيد معهم ليتولوا عنهم نصب الخيام وحفر الخنـادق.

فحامية الولايات الشرقيـة كانت تستغرق معظم الجيش الدائم لخطر الغزوات الاسلامية، خصوصاً في القرنين التاسع والعـاشر وقد جعلوا على رأسها أشرف أبناء الروم والمعهم بطولة في محاربة المسلمين والرد على غارات الصوائف. فإذا اجتازت الصائفة الدرب غازية، بادر القائد المحلي إلى أنباء حامية الولاية، فتستصرخ هـذه الحاميات القريبة، وتنطلق فرسانها لملاقاة العدو المغير ومشاغلته، وتسرع المشاة إلى احتلال الطرق التي سيرجع منها في عودته.

وأما الحاميات المجاورة فإنها تحشد أعظم قواتها، وتستعد مرابطة في الموقع الذي ينتظر ان ينقض العدو عليه. فإذا تم الاحتشاد في أوانه من غير إبطاء أو إهمال، وسدت طرق الرجوع والتقـدم نفذت خطة التطويق ووقع المغيرون في الحصار. ويجهز جيش في الوقت نفسه لغزو الأراضي المتاخمة، ويؤمر الأسطول بالابحـار إلى شواطىء المسلمين. إلا ان فرسان الصوائف كانت تزحف بسرعـة مدهشة إلى الولايات الشرقية لخفة خيولها وأعتدتها، فكثيراً ما تنال منها وتعود غانمة قبل أن يتم الحشد لبطء سير الجنود الـبزنطية مما عليها من أثقال السلاح والحديد.

وإذا كانت بزنطة هي المغيرة على الأراضي الاسلامية ، خرج القيصر أو الدمستق بجيش من القسطنطينية ، فتنضم اليه كتائب من حاميات الولايات أغلبها من المشاة ، ولا تخلو من الفرسان لأن القيصر لا يغزو باقل من ثمانية آلاف ومائتي فارس ، في حين ان الحرس الامبراطوري لا يعد اكثر من ستة آلاف .

وموقعة عمورية حدثت على أثر غارة شنها القيصر على الولايات الاسلامية ، والخلافة يومئذ للمعتصم بن الرشيد . وكانت جيوش المسلمين مشتغلة بمحاربة الخرمية في أرمينية وأذربيجان ، فرأى القيصر تيوفيل بن ميخائيل الثاني ان الفرصة سانحة للنيل من المملكة العربية . ويقول الطبري وابن خلدون ان بابك الخرمي لما اشتد عليه تضييق المحاصرين كتب إلى القيصر يزين له الغزو ويقول : « ان ملك العرب قد وجه عساكره ومقاتلته اليه حتى وجه خياطه يعني جعفر ابن دينار ، وطباخه يعني ايتاخ . ولم يبق على بابه أحد ، فإن اردت الخروج اليه ، فاعلم انه ليس في وجهك أحد يمنعك . » وكان مأرب بابك في استفزاز ملك الروم ان يخفف عن جيشه ضغط المسلمين بفتح جبهة ثانية تضطر المعتصم إلى توزيع قوى جيوشه .

فخرج تيوفيل بمائة الف ، فيهم من الجند سبعون الفاً وبقيتهم خدم واتباع . فصار إلى زبطرة سنة ٢٢٣ هـ (٨٣٧ م) وهي مدينة

للمسلمين بين ملَطية وسميساط متاخمة بلاد الروم ، فاحرقها وفتك برجالها وسبى النساء والأولاد . ثم أناخ على ملطية وغيرها ، فاثخن فيها ومثل بمن صار في يده من الأسرى فسمل أعينهم وقطع آنافهم وآذانهم . ثم عاد الى مملكته يجر وراءه الغنائم . فلما انتهى الخبر الى المعتصم استعظمه ، وكان في تلك الأثناء قد ظفر ببابك الخرمي وقتله ، بعد انتصار قائده الافشين في موقعة البذ .

فنشط الى حرب الروم ، فحشد لهم جيشاً عظيماً لم يحشد مثله خليفة من قبل ، كما يقول الطبري وابن خلدون . وجهزه بانواع السلاح والدبابات والمجانيق والنفط والمؤونة وقرب الماء . وجعل على مقدمته اشناس وبعده محمد بن ابراهيم . وعلى ميمنته ايتاخ . وجعل جعفر بن دينار الخياط على الميسرة ، وعجيف بن عنبسة على القلب . فزحف اشناس بالجيش الى ارض الروم مجتازاً درب طرسوس من سورية الشمالية ، وعسكر في مكان يعرف بمرج الأسقف نزولاً عند امر المعتصم حتى يلحق به .

وزحف الافشين بجيش آخر من جهة أرمينية ، فاخترق الحدود بخطوات خفيفة أزعجت القيصر ، وكان مرابطاً في عمورية (**Amorium**) قاعدة الانضول وحصنه الحصين . فاستخلف أحد كبار قواده على المدينة ، وصار بقسم من الجيش لموافاة الافشين . فخاف المعتصم على قائده ومن معه من العسكر ، فكتب اليه يأمره

بالتوقف عن المسير لئلا يأخذه الحصار إذا التف عليه جيش تيوفيل من جهة ، والحاميات المحلية من جهة أخرى . ولكن الافشين كان قد اوغل مسرعاً في البلاد فما لحق به كتاب المعتصم ، ولا أدركه الجيش القيصر بزحفه البطيء . فنفذ من الحاميات يخترق المدن والقرى ، غازياً غانماً حتى وصل بجيشه سالماً الى انقرة ، وكان اشناس قد دخلها من غير قتال لجلاء الحامية واهلها عنها .

ثم لحقه الخليفة بمن معه ، فانضم اليهم الافشين بقواته الضخمة فكان منها للمعتصم ، ومن جيش أشناس جحفل جرار عظيم . فقسمه المعتصم ثلاثة جيوش أحدها في الميمنة بقيادة الافشين ، والثاني في الميسرة بقيادة أشناس ، والثالث في القلب بقيادته . وجعل لكل جيش منها ميمنة وميسرة ، وترك بين الجيش والآخر مسافة فرسخين . ثم أمرهم بالزحف وان يخربوا ويحرقوا في طريقهم القرى بين أنقرة وعمورية . فزحف اولاً أشناس حتى شارف المدينة فنزل على ميلين منها . ثم وافاها المعتصم في اليوم التالي ، ثم الافشين في اليوم الثالث ، فالتفوا عليها وأحاطوا بها .

وكانت الحامية قد شقت أمامها خندقاً عميقاً متسعاً يدور بها كالنطاق ، وغلّقت أبوابها ، وتحصنت بالأسوار والأبراج . ولكن هذه الأسوار كان قد تهدم جانب منها واهمل ترميمه حتى خرج القيصر من القسطنطينية الى عمورية ، فخاف بطريقها ان يرى الجانب المتهدم

فيلومه على اهماله إياه ، فبادر الى اصلاحه مستعجلاً ، فبنى ظاهره بالحجارة وترك الخلل في باطنه . وعقد فوقه الشرف على جسر من خشب . فلما وافاها المعتصم بجيوشه ، ورأى علو أسوارها وسعة خندقها ، أمر بأن تذبح الأغنام التي ساقها في طريقه ، وكان عددها عظيماً ، وأن يعطى كل جندي شاة يأكلها ، على ان يحشو جلدها تراباً ، ثم تطرح هذه الجلود في الخندق لتطمه .

فذبحت الأغنام وحشيت الجلود ، وابتدر الجند الى الخندق يلقونها فيه ، فانهالت عليهم الروم من الأسوار بالحجارة ، فلم يتمكنوا من تسوية الجلود فتساقطت مختلفة غير منضدة . فأخذوا يهيلون عليها التراب حتى تمهدت وانبسطت . ثم أمر المعتصم بالدبابات والمجانيق ، فنصبت مجانيق كبار على قدر ارتفاع السور يسع الواحد منها اربعة رجال ، تحتها عجلات تجري بها اذا دحرجت . وقدمت دبابات اكبر منها تسع الواحدة عشرة رجال . فدحرج بعضها الى السور فتعلق باوعية الجلود في الخندق ، وخلص منها اصحابها بعد الجهد . ثم أخذت المجانيق تدب الى الاسوار وتمطرها بوابل من الحجارة ، فأصيب جانب السور المنثلم فتصدع .

وقيل ان رجلاً من المسلمين كان قد أسره الروم فتنصر وتزوج فيها ، جاء الى المعتصم ، ودله على ثلمة السور فسدد اليها المجانيق . وأمر بان تكون الحرب مناوبة بين الجيوش الثلاثة ، يحارب كل جيش يوماً ويستريح يومين . فبدأ بالحرب أشناس ومعه جيش

الميسرة ، وكانت جبهته ضيقة فلم يتسع عليه المجال ليقوم بحركات الهجوم على الأسوار ، فدعا المعتصم بالمنجنيقات الكبار التي كانت متفرقة حول الاسوار فجمع بعضها الى بعض ، وصب قذائفها على الجانب المثلوم حتى انفرج ، فنشط الروم الى سده بالاخشاب والبراذع ، فكانوا كلما اقاموا سداً منها حطمته الحجارة وأزالته ، فما يكاد يبنى حتى ينهدم .

وفي اليوم الثاني باشر لافشين القتال بجيش الميمنة ، فابلى أحسن البلاء ، وهاجم الاعداء على الاسوار بالدبابات والمجانيق والسلالم ، فكانت بينه وبين البزنطيين معركة دامية ، اعجب بها المعتصم كثيراً حتى قال : ما أحسن الحرب اليوم !

ثم كان اليوم الثالث فقام بالهجوم جيش المعتصم ، واكثره من الاتراك والمغاربة يتقدمهم القائد ايتاخ ، فأجادوا القتال ، واتسع لهم الموضع المنثلم بين برجين .

ولم تزل المعارك متداولة بين جيوش المعتصم الثلاثة ، يقاتل كل واحد منها في يومه بعد راحة يومين ، وحامية عمورية تقاتل مستبسلة على الاسوار والابراج ، مدافعة عن الجانب المتصدع لترد عنه هجمات المسلمين بدباباتهم وسلالمهم ، حتى مضى على الحصار خمسة وخمسون يوماً . فنهكت قوى المدافعين ، وكثرت فيهم الجراحات . وكانوا يتوقعون المدد من جيش القيصر فاذا هو ما يزال

بعيداً عنهم لا ترجى نجدته . واشتد الضيق خصوصاً على البرجين اللذين بجانبي الثلمة ولم يبق بوسع القائد المدافع عنهما ، أن يتابع القتال ، ورجاله بجملتهم أثخنتهم الجراح . وقد رأى ان البطريق ياطس وقواد الأبراج الأخرى أصبحوا عاجزين عن امداده ، لاشتغالهم بالدفاع عن حصونهم المهددة ، فهم لا يستطيعون تخفيف حاميتها مخافة أن يستولي عليها المهاجمون . فاعتزم أن يخرج في الغد الى الخليفة ويساله الامان على المدينة ، ويسلمها اليه . فلما أصبح عهد إلى عساكره في حماية الثلمة ، ونزل يريد المعتصم فما ان بلغ اليه حتى أمر الخليفة بالهجوم ، فحمل الجيش بالدبابات والمجانيق والسلالم ، ووجه اعنف غارته إلى ناحية الثلمة ، فأزال عنها المدافعين واستولى على البرجين . فدخل المسلمون المدينة وانتشروا بها ، فنشبت ملحمة في الشوارع ، قاتل فيها البزنطيون مستميتين ، فكانوا طعام السيوف . ولبث القائد ياطس وجنوده يدافعون في أعالي أبراجهم ، لا يستسلمون حتى سقطت عمورية بجملتها في أيدي المسلمين . فنزل القائد الرومي من برجه مستسلماً . ورميت المدينة بالنفط والنار والتهديم ، فتداعت معالمها بين أيدي الحريق والخراب .

وسيق السبي والأسرى والغنائم من كل جانب ، فأفرد الأشراف للفداء ، وقتل الباقون . ثم نودي في الجيش على السبي والمغنم ، خمسة أيام ، فبيع الرقيق خمسة خمسة وعشرة عشرة ، والمتاع الكثير جملة واحدة ، وأحرق من المغانم شيء كثير لم يقع البيع عليه .

وبلغ المعتصم ان تيوفيل قيصر الروم يحشد حرس الولايات ليحصر المسلمين ويقطع عليهم سبيل العودة ، فأمر الجيش بالرجوع ، سالكاً بهم طريقاً مقفراً إلى وادي الجوز بدلاً من طريق الجادّة ، فساروا نحو أربعين ميلاً في برية لا ماء فيها ، فأصابهم العطش الشديد فهلك خلق من الناس والدواب . وكان المعتصم قد تقدمهم وبلغ موضعاً فيه ماء ، فعاد اليهم بالقِرَب الروية ، فسقاهم وانقذ حياتهم . ثم رأى أن يخفف من أثقال الأسرى عن جيشه وهم يشاركونه في مائه وغذائه . فأمر ترجمانه الرومي بأن يميز من له القدر منهم فيعزله جانباً ، وضربت أعناق الآخرين وهم مقدار ستة آلاف أسير على حد قول الطبري .

ثم تابع المعتصم سيره في المجاهل المهجورة حتى نفذ بجيشه إلى طرسوس سالماً ظافراً . فأحبط مساعي قيصر الروم فما تمت له خطة التطويق وسد طريق الرجوع . وانتقم لزبطرة من عمورية أبلغ انتقام فغادرها تلتهمها ألسنة النار كما وصفها أبو تمام بقصيدته الشهيرة :

لقد تركت أمير المؤمنين بها   للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحىً   يُقله وسطَها صبحٌ من اللهب
ضوء من النار ، والظلماء عاكفة ،   وظلمة من دخان في ضحى شحب

حروب عبد الرحمن الناصر

قامت دعائم العرش الأموي في الغرب بعد أن تداعت في الشرق أركانه ، فإذا قرطبة تنافس بغداد ، وحضارة الأندلس تباهي حضارة بني العباس ، حتى ان أبا جعفر المنصور على كرهه لبني أميـة ، لم يستطع ان يخفي إعجابه بمؤسس دولتها في أوربة عبـــد الرحمن الداخل ، فلقبه بـ « صقر قريش » .

على ان الاندلس بقيت مدة طويلة في عهـــد الأمراء الأمويين متمزقة الأوصال لا تجمعها وحدة شاملة تلم أشتاتها . فالزعامة العربية تأبى الخضوع إلا مكرهة لأن حب السيادة أصيل فيها ، والتعصب القبلي بين المضرية والقحطانية مستحكم أبداً . فقد انتقضت اليمانية في أشبيلية (Séville) وعلى رأسها كُريب بن خلدون وعبدالله بن حجاج واخوه ابراهيم والحجاج بن مسلمة . وعـــاونهم البربر الآتون من بطليوس (Badajoz) على التقتيـل والنهب . والـبربر ناقمون على

العرب لاستئثارهم بالسلطان والسيادة ، يقتطعون الولايات ويثورون بها ، كما ثار بنو موسى ومحمد بن تاكيت بقبائل هوارة ومصمودة في جهات سرقسطه (Saragosse) وماردة (Mérida) وسواهما .

والمولدون (الاسبانيون الذين ولدوا بين المسلمين وأسلموا) يكرهون الفاتحين ، ويودون التخلص من حكمهم ، فطليطلة (Tolède) عاصمة القوط القديمة يثور سكانها المولدون والمسيحيون ملتجئين إلى أمراء اسبانية فيضعهم الفونس الكبير تحت حمايته ، ويجعل من طليطلة جمهورية مستقلة . وعمر ابن حفصون الذي يتحدر من أصل قوطي يجاهر بالعصيان ويستولي على حصن بُبشتر (Bobastro) معتصماً به يحارب الأمويين السنين العديدة . وعبد الرحمن بن مروان ينتقض في بطليوس بمن معه من المولدين ، فيزعج دار الامارة زمناً طويلاً ثم يستقل بولايته .

هكذا كانت ثورات المولدين والبربر والعرب تعم الشمال والجنوب فتشل الوحدة الأندلسية ، ويستغلها ملوك اسبانية من ناحيتهم فيغذونها بالمال والرجال ، ويبسطون حمايتهم على الولايات الثائرة في الشمال . فأصبح امراء بني أمية لا همّ لهم إلا أن يجهزوا الجيوش المتتابعة لمحاربة العصاة الخارجين ، والرد على غزوات الاسبانيين ، وهم مع ما يبذلون من الجهد ، لا يتأتى لهم اخضاع الخوارج بجملتهم ولاسيما المولدون فإن ثوراتهم كانت اشد وقعاً وانتشاراً من غيرها ، وعلى

الأخص ثورة ابن حفصون . ومات الامير عبدالله الأموي ، والاندلس متفككة الأعضاء تهدد الحروب والفتن مصيرها فما ينقذها من الخطر الناصب إلا رجل من هبة الليالي يجمع شعثها ، ويدفع عنها عوادي الأيام ، فشاء حسن الطالع أن يتداركها بعبد الرحمن .

كان في الثانية والعشرين من عمره عندما مات جده عبد الله وخلت الامارة من ربها ، فتصدى لها ، واعمامه وأعمام أبيه طامعون فيها ، فنالها دونهم بجرأته واقدامه ، ونكصوا عنها مسلمين له العرش على حداثة سنه (٣٠٠ هـ ـ ٩١٢ م) .

فوليها نحو خمسين سنة فكانت امارته طوال عهدها حافلة بالأمجاد والمفاخر ، متعاقبة الحروب والانتصارات ، والاندلس خصيبة الارزاق ، ملتحمة الاجزاء ، زاهرة العمران ، تبايع اميرها بالخلافة فيتلقب بالناصر (٣١٦ هـ ـ ٩٢٩ م) منافساً خلفاء بني العباس ، متحدياً امامة الفاطميين في المغرب ، ماضي العزيمة ، رابط الجأش ، سريع الاجراء لا يثنيه حائل عن مطلب يبتغيه . فقد صعد الى العرش وما مضى شهران على ملكه حتى وجه مولاه بدراً بحملة إلى مدينة استجه (Ecija) فانتزعها من يد الثائر ابن حفصون ، ثم سار على الاثر اليه بنفسه فانتزع منه اكثر من ثلاثين حصناً ، منها البيرة (Elvira) ، وما زال يتابع مواقعته سنة بعد سنة حتى توفي ابن حفصون سنة (٣٠٥ هـ ـ ٩١٧ م) ، فخفت وطأة الثورة

بموته، وان يكن واصلها أولاده من بعده ، فقد اضطروا الى الخضوع بعد انكسارات حاطمة ، واسلمت قلاع ببشتر قيادهـا لعبد الرحمن (٣١٥ هـ ـ ٩٢٨ م) .

ولم تكن جهوده مصروفة الى ابن حفصون وحده بـل شملت جميع الأنحاء الثائرة والولايات المنفصلة ، فاستنزل الثائر وضم الولاية تلو الأخرى حتى سقطت بين يديه طليطلة المتمردة وخابت مساعي راميرو الثاني في انقاذها ، فاصبحت الاندلس أمة مجموعة على رأسها الخليفة عبد الرحمن الناصر بعد أن جـاهد نيفاً وعشرين سنة في سبيل توحيدها .

وقد استفاد عبد الرحمن ، ولا ريب ، من تفسخ اسبانية المسيحية ، واختلاف ملوكها حتى اصبح بعضهم حرباً لبعض . فعلى الحـدود الشمالية ممالك كثيرة باسمائها ، قليلة بمعانيها ، أظهرها ثلاث : لاون (Léon) والنافار أو بلاد البشكنس (Les Basques) والارغون ، يتفرع منها دويلات صغيرة : جليقيـة (Galice) واشتوريش (Asturies) وقشتالة (Castilles) ، واقطاعات يستبد النبلاء بها مثل كونتية برشلونة وما شاكلها من الامارات . فاسبانية المسيحية لا تقل تفككاً وخلافاً عن اسبانية المسلمة ، غير انه لم يتح لها بعد رجل يجمع امرها كما اتيح للاندلس . فمشاكلها الداخلية كانت تعين عبد الرحمن على حل مشاكله ، وحروبها الاهلية سهلت له النصر على

ثوار مملكته . فقد كانت اسبانية المسيحية بطبيعة الحال عوناً لكل ثائر على امير قرطبة لا تالو جهداً في تحريضه وامداده ، ولاسيما ثوار التخوم الشمالية كطليطلة وسرقسطة ، فقد كانت تتعهدهم باشد العناية ، ومع هذا لم تستطع ان تدفع عنهم جيوش عبد الرحمن ، وتنقذهم من الخشوع لديه ، لتقسّمها واشتغالها بهموم اماراتها واقطاعاتها . بيد انها كانت مضطرة ابداً الى التأهب لدفع غزوات الامويين ، أو لغزو بلادهم رداً على غاراتهم ، أو نجدة لمدينة ثائرة بهم . وربما تحالف بعض أمرائها لحرب المسلمين كما تحالف شانجة ملك النافار (Sancho) وأردون ملك ليون (Ordono) لمحاربة عبد الرحمن الكبير .

وكان الامير الاموي يترسم خطة اسلافه في غزو اسبانية سنوياً لتخريبها واضعافها ان لم يكن لفتحها وامتلاكها ، حتى جعلت هذه الحروب المتواصلة حداً فاصلاً بينها وبين الاندلس ، صحراء شاسعة مقطعة الاشجار خالية من العمران ، فكأن السائر فيها يطوي البيداء في أفريقية أو شبه جزيرة العرب .

وحالف النصر عبد الرحمن في معظم حروبه مع الاسبانيين ، وكان بدؤها سنة ٣٠٢ هـ ، اذ خرج أردون مغيراً بجيشه على ماردة فعاث في جهاتها ، واستولى على بعض حصونها ، فقابله عبد الرحمن بالغارات المتوالية على بلاده يوجه اليها قواده حتى كانت

سنة (٣٠٨ هـ ـ ٩٠٢ م) فخرج الامير بنفسه غازياً فاستنصر اردون شانجه ملك اليشكنس، فهزمها عبد الرحمن، وخرب المدن وفتح الحصون وهدمها، ثم عاد الى الاندلس غانماً ظافراً.

وأشهر حملاته واعظمها وقعاً في نفوس الاسبانيين، غارته على بنبلونة (Pempelune) عاصمة النافار ونزوله فيها سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) وسببها ان أردون الثاني ملك ليون وشانجه ملك النافار واصلا الغارات على اراضي المسلمين بعد غزوة عبد الرحمن لبلادهما، فبلغ اردون في احدى غاراته ضواحي قرطبة، واستولى شانجه على حصنين عظيمين في الحدود الاسلامية، فاقسم عبد الرحمن أن ينتقم من أعدائه شر انتقام وحشد لهذه الغاية جيشاً لجباً وزحف به إلى طليطلة، وكانت لا تزال تلج في عصيانها محتمية بملك النافار وله فيها حصون منيعة، فأناخ عليها وهدّم طائفة من حصونها.

ثم اخترق البلاد الاسبانية وأوغل فيها، ينشر الذعر كيفما سار، حتى بلغ بنبلونة وجيوش البشكنس تنهزم امامه لا تقوى على الثبات، فدخل العاصمة بجيشه وأعمل فيها النار والخراب، فحاول ملك النافار أن يلتف عليه منصبّاً من الجبل المشرف على المدينة، فبادره عبد الرحمن مطارداً بفرسانه، فانهزم بمن معه وسقطت العاصمة بجملتها في أيدي العرب. وكانت خالية من السكان لأن أهلها جلوا عنها قبل ان يقترب الغزاة اليها.

ويقول لويس برتران في كتابه « تاريخ اسبانية » : « ان المسلمين اوغلوا في البلاد المسيحية قبلاً اكثر مما فعلوا هذه المرة ، ولكن الخطب الأكبر الذي صعق له النافاريون وجيرانهم ، كان في هدم بنبلونة وكاتدرائيتها بصرف النظر عن كنيسة ثانية بالغ ملك النافار في تحليتها وتزينها ، والظاهر انها كانت أحد المزارات الكبرى في تلك الجهات . »

ورجع عبد الرحمن من غزوته الثأرية إلى قرطبة ، بعد غياب أربعة أشهر ، تخفق على رأسه رايات الظفر ، وهيبته تملأ الأسماع والعيون . فما كاد يجد الراحة حتى هب إلى الثوار يحاصرهم في معاقلهم ، فيستخذون اليه داخلين في طاعته . وما هي الا سنوات معدودة حتى خضعت له الأندلس باسرها ، وخضعت بعدها ممالك اسبانية ، فصار الأمراء المسيحيون لا يستنكفون ان يفزعوا إلى قصر قرطبة ملتمسين فيه العون والحماية . فإن طوطة (Tota) ملكة النافار حملت نفسها على كبر السن ٣٢٢ هـ (٩٣٣ م) إلى الخليفة الناصر ، فقدمت له الطاعة جاعلة عرشها في عهدته ، فصارت بلاد البشكنس وهي الصعبة المراس ، سهلة القيادة تابعة للاندلس يتصرف الخليفة في أمورها ، فيؤيد شانجه ملكاً عليها إجابة لرغبة طوطة ، ويصبح شانجة تابعاً له ، معتزاً بحمايته . وتصبح بنبلونة الحرة التي اجتاحها عبد الرحمن بالأمس ، أمة جارية وراء قرطبة .

وما كان اندحار الناصر في وقعة الخندق سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٩ م) ليلقي غشاء على انتصاراته السالفة مع ما لقي فيه جيشه من التحطيم ، فقد ارتد الخليفة عن سموره (Zamora) خاسراً معظم جنوده ، ولم يجد حوله إلا تسعة واربعين رجلاً من أصحابه يحيطون بـه بعد وصوله الى مكان امين . هذا الانتصار الذي احرزه رامـيرو ملك لاون جعل عبـد الرحمن يمتنع عن الغزو بنفسه فصار يغزو الاسبانيين كل سنة بقواده ، حتى حمل ملوكهم على خطب مودته . وبلغ من عزة الجانب ان جاءته وفود بزنطة وأوربة تعقد معـه عهود الصداقة ، وتقدم اليه الهدايا النفيسة ، فنالت الأندلس في أيامه من المجد والرفعة ما لم تنل مثله منذ الفتح العربي .

تدمير شنت ياقب

مات الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، وترك العرش يتنازعه حزبان : حزب الصقالبة ، الحرس الخصيان . وحزب رجال الدولة من عرب ومولدين . وكان الصقالبة يريدون الخلافة للمغيرة بن الحكم . ورجال الدولة ، وعلى رأسهم محمد بن أبي عامر يريدونها لأخيه هشام ، تعضدهم امه السيدة صبح ، اسبانيـــة من البشكنس (Basques) تزوجها الحكم ، فكان لها في دولته نفوذ كبير ، واليها يرجع الفضل في تقديم محمد بن ابي عامر ، وتوليته الخطط العالية . فانهـــا أحبته فاتخذته عشيقاً لها ، فما زال يتقاب في المناصب حتى صارت اليـه رقابة بيت المال . فلما توفي الحكم وجاهر الصقالبة بالدعوة للمغيرة ، اتفق محمد والوزير جعفر بن عثمان المصحفي على إحباط مساعيهم والتخلص من صاحب دعوتهم ، فجمع محمـد قوة من جنود العرب والبربر في معسكر قرطبة ، وسار بهم ليلاً إلى بيت المغيرة فقتله ،

ولم يكن هناك من يدافع عنه .

وتمت البيعة لهشام وكان غلاماً في العاشرة من عمره ، فجُعل المصحفي حاجباً له يدبر أموره ، ولكن السلطة كانت بيد ابن أبي عامر لدهائه من جهة ، ثم لرضى السيدة صبح عنه من جهة اخرى . على انه لبث يتودد للحاجب ويصانعه حتى حمله على نكبة الخصيان الصقالبة ، فأخرجهم من القصر ، وأزال نعمة هؤلاء الخدم المستبدين . وحدث ان الاسبانيين اقتحموا الثغور الاندلسية ، فبعث المصحفي ابن ابي عامر بجيش لدفعهم فوفق في حملته وعاد منصوراً لامع الذكر ، فعين رئيساً للشرطة بدلاً من ابن المصحفي وعلى الرغم من والده الحاجب . فأوجس الوزير منه شراً ، فرأى أن يتدارك نفوذه قبل ان يهوي ، بمصاهرة غالب مولى الحكم وقائد جيوشه ، فيأخذ ابنته اسماء لأحد أولاده .

وفاته ان عين صاحب الشرطة ساهرة ، فما أن بلغته هذه الأخبار حتى سارع الى غالب فخطب اليه ابنته هذه ، وعطفت على قضيته السيدة صبح فكللتها بالتوفيق ، وشهدت عرسه بنفسها ، وكان أعظم عرس بالأندلس ، كما يقول المقري في نفح الطيب . ثم لم يطل الأمر حتى ُخلع المصحفي عن منصبه ، وُغيب في السجن بقية عمره . فاستراح محمد من منافس خطر ، وراح يسعى إلى توطيد سلطانه باستمالة الفقهاء . وكان أعداؤه يتهمونه بدينه ، فجمع فقهاء قرطبة في دار الكتب التي انشأها عبد الرحمن الناصر ، وغذّاها ابنه الحكم ،

فاطلق أيديهم في إحراق كتب العلم والفلسفة إذا رأوا فيها ما يخالف القرآن . فنال بعمله هذا عطف رجال الدين ، فخذل أعداءه ومتهميه ، ولقبه أهل قرطبة بالثعلب لدهائه وروغانه .

ثم عطف إلى الجيش يلتمس اصلاحه وتجديده ، فأبعد رجال العرب واسقطهم عن مراتبهم ، لما فيهم من طموح إلى الرئاسات ، واعتداد بقبائلهم . وأبعد معهم المولدين كما أبعد قبلهم الصقالبة . واستدعى أهل العدوة في المغرب من رجال زناته والبربر ووعدهم بالارزاق والاعطيات الكثيرة ، فعبروا الزقاق اليه جماعات جماعات ، قساة خشنين صلاب العود ليس عليهم إلا أطمار بالية . فالبسهم الدمقس الموشى والنسيج الغالي ، وأنزلهم قصوراً انيقة ما رأوا لها مثيلاً ولا حلموا بها من قبل ، فكانوا جنوده المخلصين يعتمد عليهم في ملماته وغزواته .

ولكن القائد غالباً والد زوجته بقي يشاطره النفوذ في الدولة ، ولا يدعه يستأثر بالسلطان ، فنشب الخلاف بينهما . وكاد غالب يفتك بصهره ذات مرة بعد ان أوسعه شتماً وإهانة ، فاشتد العداء بينهما ، فاستعان محمد عليه بالقائد جعفر بن علي ومن معه من جيش زناته والبربر ، فخرج غالب من الاندلس والتحق برامیرو الثالث ملك ليون ، مستنصراً جيوشه على غزو قرطبة ، والفتك بصهره . فبادر محمد والقائد جعفر إلى لقائه ، فجرت بينهم موقعة انتهت بمقتل غالب .

ثم زحف ابن ابي عامر بجيشه فاغار على البلاد الاسبانية فأثخن فيها ، وهزم راميرو وحلفاءه . وعاد يجر وراءه مغانم الظفر ، فقلده الخليفة منصب الحجابة ، واجاز له أن يتقلب بالقاب الملوك فتلقب بالمنصور . ورأى المنصور ان وجود القائد جعفر بقربه يضايقه ، فمالأ جماعة من زعماء العرب والبربر فساعدوه على محو شخصه .

ثم ما زال يضرب القواد والرؤساء بعضهم ببعض ، فيقتل هذا ويسجن ذاك ، الى أن خلا له الجو من كل منافس ومزاحم . حتى ان السيدة صبح نفسها انهار نفوذها فباتت تشكو جور هذا الحبيب الخؤون . وأدركت عندئذ ان خليلها رجل جد وطموح ، لا صاحب لهو وغزل ، وانه ما بادلها الهوى في غفلات الساعات إلا لكي يصل إلى هذه الساعة . فما كاد ينفض عنه هموم أعدائه ومناوئيه حتى ارتد الى الخليفة الصغير فحجر عليه واستولى على الدولة حاكماً بامره، فاستوى على العرش وأمر بان يحيّا بتحية الملوك ، وان يدعى له على المنابر عقب الدعاء للخليفة ، وان يكتب اسمه في السكة والطراز .

ثم أخذ يردد الغزوات في الممالك الاسبانية ، وبلاد المغرب ، فافتتح برشلونة (٣٧٥ هـ ـ ٩٨٥ م) بعد ان طال عصيانها على أسلافه . وخضع له ملك النافار وملك قشتالة ، فكانا من اتباعه يؤديان الجزية كل عام . وخضعت له قوامس البرتغال (قوامس مفردها قومس ، تحريف كونت) واعترفت بسيادته .

وأجاز عساكره إلى العدوة فاقتحم ملوك البربر ضارباً بعضهم ببعض ، فاستوثق له ملك المغرب ، وانقادت أمراء زناتة لحكمه ، وأطاعوه . قال ابن خلدون : « فغزا اثنتين وخمسين غزوة في سائر ايام ملكه لم ينكس له فيها راية ، ولا فل له جيش ، ولا أصيب له بعث ولا هلكت له سرية . »

وأبلغ أثر تركته في نفوس الاسبانيين غزوتـــه لشنت ياقب (Santiago) في جلّيقية (Galice) لما لها من القداسة عندهم وفيها كنيسة القديس يعقوب وقبره (Saint-Jacques de Compostelle) يحج اليها المسيحيون من الأنحاء البعيدة . وكان سبب هذه الغزوة ان الملك برمند بن أردون (Bermude II) ابى ان يؤدي الجزية التي ضربها عليه المنصور ، واكرهه على قبولها . فحشد الحاجب جيشاً لتأديب هذا العاصي ، وخرج به من قرطبة يوم السبت لست بقين من جمادي الآخرة سنة ٣٨٧ هـ (٣ تموز ٩٩٧ م) وسار الى قورية (Coria) ومنها اجتاح جليقية ، فوافـاه عـدد عظيم من قوامس البرتغال المتمسكين بطاعته ، وانخرطوا في جيش المسلمين يساعدونه على إخضاع الثائر ، لأنهم يعتبرون انفسهم اتباعاً لملك قرطبة . والنظام الاقطاعي يقضي بان يناصروا الملك الأعظم في حروبه ، او إذا خرج لقمع فتنة واستنزال خـــارجي ثائر . وكان يرافق الجيش البري اسطول يمخر في شواطىء المحيط جهزه المنصور بالبحـــارة وفرق الرّجالة ، وحملة الاقوات والسلاح والأعتدة . فسار حـتى بلغ نهر

دوَيرة (Douro) شمال البرتغال ، فدخل في النهر حتى بلغ المكان الذي وقف الجيش عنده يريد العبور منه ، فعقد المنصور من الاسطول جسراً يعبر الجيش عليه ، وزوده بالميرة التي كانت تنقلها السفن ، فعبرت الجنود الى العدوة اليسرى ، وزحفت تقطع الأراضي الشاسعة وتجتاز ما يعترضها من الأنهر والخلجان معتمدة على مؤازرة الأسطول حتى انتهت إلى جبل شامخ شديد الوعر لا مسلك فيه ، لم يهتد الأدلاء الى غيره . فقدم المنصور الفعلة بالحديد لتوسعة شعابه ، وتسهيل مسالكه ، فشقوا فيه طريقاً بعد جهد عظيم ، فاجتازته العساكر معانية أشد النصب ، ثم انحدرت منه في أودية تقطعها الأنهر والسواقي ، فتعدتها عبوراً وخوضاً حتى بلغت البسائط الممتدة ، فتمهدت لها الطرق ، وتسهل الزحف .

وتقدم المسلمون في جيليقية يستولون على المدن والحصون ، ثم يتركونها خراباً ، والجلالقة ينهزمون أمامهم ، بحسب خططهم المعتادة ، يخلون لهم الأماكن ليتوغلوا في المفاوز الوعرة ويبتعدوا عن قواعدهم .

غير ان القوامس البرتغاليين كان لهم خبرة في تلك البلاد ، فاهتدى بهم الجيش إلى الطرق المأمونة ، والمواقع التي يمكن ان يستفيد منها ، إلى أن أفضى بهم الغزو إلى مزار البدرون (El - Padıon) وهو عند أهل جليقية تلو شنت ياقب في الحرمة والقداسة ، فأحرقه المنصور وغادره إلى شنت ياقب رماداً ، فأناخ عليها لليلتين خلتا من

شعبان (٩ آب) فإذا هي خالية من السكان ، قد جلوا عنها قبل ان يصل الغازي اليها ، فحاز المسلمون غنائمها وهدموا مصانعها البديعة ، وأسوارها وكنيستها ، ومحوا معالمها وآثارها إلا قبر القديس يعقوب فان المنصور وكل بحراسته من يحفظه ويدفع عنه الأذى ، لأنه تحوّب ان يهدم قبراً لتلميذ المسيح . وكان على القبر راهب شيخ تخلف وحده في المدينة لم يغادرها ، فسأله المنصور عن مكوثه دون سائر السكان ، فقال : « اونس يعقوب » . فأمر المنصور بان لا يتعرض له أحد بسوء ، فترك وشأنه فبقي هو والقبر سالمين في دنيا من الخراب .

ثم ارتد الغازي عن شنت ياقب يدمر ما يقع تحت يده من المدن والقرى التابعة لامارة برمند حتى انتهى إلى أراضي القوامس المعاهدين الذين في عسكره فكف الجيش عن السلب والتدمير . واجاز المنصور هؤلاء القوامس على أقدارهم ، وكساهم وكسا رجالهم ، وصرفهم إلى أعمالهم مثنياً عليهم . وعاد إلى قرطبة بمن معه من العسكر والغنائم . فلبست العاصمة أحسن زينتها لقدومه ، واحتشد الناس في الشوارع والشرف يستعرضون مواكب الأسرى حاملة على عواتقها اجراس كنيسة شنت ياقب وأبوابها ، مهللين للملك الظافر ، والجيش المنصور .

معارك سيف الدولة ونقفور

رفع سيف الدولة عرش بني حمدان في حلب بعد حروب كالحة بينه وبين البويهين في العراق، ثم بينه وبين الأخشيديين في دمشق وحمص وحلب. فاستقام له الملك على سورية الشمالية يظلل الجزيرة بين الفراتين، ويلقي هيدبه على العاصي في حماة وحمص. وانكفأ عنه معزّ الدولة متفرغاً لمشاكل العراق. وانكفأ عنه كافور، بعد أن استعاد دمشق، يؤثر الطمانينة ليقوم بأثقال وصايته على عرش الاخشيد في مصر. ولكن انكفاء هذين الأميرين لم يكن كافياً لاستقرار حال المملكة الحمدانية، وتوفير الراحة لأميرها سيف الدولة. وعرشه قائم على الثغور البزنطية، فهو مضطر أبداً إلى التاهب لدفع غزوات الروم ومقابلة الغارة بالغارة.

وكانت بزنطة لا تفتر عن مهاجمة الثغور الاسلامية، كما ان

المسلمين لا يفترون عن مهاجمة ثغورها ، غارات لا تنقطع صائفة واحياناً شاتية . وازداد الروم نشاطاً في القرن العاشر بعدما أبصروا تفكك الدولة العربية ، وانقسامها امارات صغيرة ، متقاطعة متعادية . والخليفة العباسي ، بين الثورات والفتن ، لا يملك من السلطان الا الخطبة ترفع له في مكان ، وتقطع عنه في مكان آخر . فغير عجيب ان ينهض قياصرة الروم لاستغلال هذه الفوضى المنتشرة في الدول الاسلامية ، والفرصة سانحة لسحق العدو القديم ، واسترجاع ما كان لهم من أمصار سلخت عنهم ، وران عليها الاسلام .

فراحوا يوجهون غاراتهم الى المدن السورية المتاخمة ، والى الولايات الشرقية التي احتلها العرب في آسيا الصغرى . فتتابعت فتوحهم في عهد قسطنطين السابع (٩٤٥ ـ ٩٥٩ م) ثم في عهد ولده رومانس الثاني (٩٥٩ ـ ٩٦٣ م) . وكان القائد كوركواس (Jean Courcouas) قد استولى على نصيبين سنة ٩٤٢ م (٣٣١ هـ) ثم على رأس العين قرب الرها في السنة التالية .

ولو لم يستدعه القيصر رومانس الأول مصيخاً الى قول الحساد فيه ، لكان بوسعه ان يتابع الحرب ما دام النصر مؤاتيه . وقد جرت هذه الحوادث متفقة وقيام العرش الحمداني في حلب ، فثار سيف الدولة الى جيشه يُعدّه لمدافعة العدو المغير ، وغزو بلاده . فتوالت الغارات من الجانبين لا تكاد تنقطع حتى اصبحت سورية

الشمالية دريئة للمجازر الفاجعة تتنازعها الايدي بين أخذ ورد . فقد سقطت مرعش وقلعة الحدث الحصينة ، وطرسوس ، وسروج في أيدي الروم ، فاستباحوها نهباً وتهديماً وسبياً . فتجهز سيف الدولة سنة ٣٤١ هـ (٩٥٢ م) . وعبر الفرات الى ارض الروم موغلاً في غاراته مخرباً غانماً ، فشاغله الدمستق فردس (Bardas) بهجوم من جهة انطاكية ، فاضطر سيف الدولة الى التراجع مسرعاً حتى عارض الدمستق في مرعش ، فالتحم الجيشان ، فكان النصر للامير الحمداني ، وانهزم الدمستق بعد ان اصابته ضربة في وجهه ، واسر ابنه قسطنطين ، واستعيدت مرعش من أيدي الروم ، والى هذه الوقعة يشير المتنبي في قصيدته التي مطلعها « لكل امرىء من دهره ما تعودا » :

فولّى واعطاك ابنه وجيوشه   جميعاً ولم يُعطِ الجميع ليُحمدا
وما طلبت زرق الأسنة غيره   ولكن قسطنطين كان له الفدا

وخرج سيف الدولة سنه ٣٤٣ هـ (٩٥٤ م) الى ارض الروم فأثخن فيها ، فجمع الدمستق فردس جيشاً من البزنطيين والروس والبلغار وسواهم ، جيشاً خليطاً صوره أبو الطيب المتنبي أروع تصوير حين قال فيه :

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه
وفي اذن الجوزاء منه زمازم

تجمّع فيه كل لِسن وأمـــة
فما يفهم الحدّاث إلا الـــتراجم

وزحف هذا الجيش يقصد الثغور العربيـة ، فتصدى له سيف الدولة عند قلعة الحدث الحمراء بين ملطية وسميساط ومرعش ، فنشبت المعركة على جبل الاحيدب ، وما طال الأمر حتى دارت الدائرة على الجيش البزنطي فانهزم عن الحدث ، واعاد سيف الدولة بناء القلعة وتحصينها . وفي ذلك يقول أبو الطيب :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها وتعـلم اي الساقيـين الغمائم
سقتها الغمام الغرّ قبل نزوله فلما دنا منها سقتها الجماجم
بناها فأعلى ، والقنا يقرع القنا ، وموج المنـايا حولها متلاطم

ويقول الثعالبي في يتيمـــة الدهر ان سيف الدولة غزا أرض الروم اربعين غزوة له وعليه . مع ان مدة ملكه لا تزيد على ثلاث وعشرين سنة ، فكانه كان يغزو كل سنة مرتين . وكان معجباً برأيه كما يقول ابن خلدون ، لا يعتدّ براي سواه ، جريئاً على المخاطر في غير موضع الأقدام ، فلا غرو ان يخفق يوماً وينجح آخر ، خصوصاً ان الدول الاسلامية المجاورة كانت منابذة له لا يتوقع المساعدة منها ، بقدر ما يخشى اعتداءها عليـه . فاضطر ان يحارب الروم بـدولته الصغيرة مع عظمة دولة البزنطيين . ولم يخف على بزنطة فساد النظام السياسي في الشرق الاسلامي ، فوجهت الى الدولة الحمـــدانية أشد

الحملات وأعنفها ، لتجهز عليها ، ولكن مشاكلها الداخلية والخارجية وقفت حائلاً دون تحقيق بغيتها ، فقد كانت الدسائس تلعب في البلاط الملكي فتثير الشقاق بين رجال الدولة .

والبلغار يضايقون البزنطيين في الغرب . والفاطميون بافريقية يشاغلونهم في البحار للدفاع عن جزرهم . والالمان بقيادة أوتون الأول يستولون على شمالي ايطاليا مهددين الممتلكات اليونانية في الجنوب . فهذه الأحداث المختلفة كانت ، ولا بد ، توزع القوى البزنطية وتضعفها ، وتفيد المملكة العربية الصغيرة . الا ان تلك الناحية الشرقية كانت تهم دولة القياصرة اكثر من غيرها ، فلم تضن عليها باحسن جيوشها ، وأعظم قوادها ، ولاسيما الدمستق نقفور (Nicéphore II Phocas) الذي صار امبراطوراً فيما بعد ، فإنه من اولئك القواد الأفذاذ الذين عرفوا بالجرأة والبطش وحسن التدبير ، وسرعة التنفيذ . فقد انتدبه القيصر رومانس الثاني لمحاربة المسلمين واستعادة ما أخذوه من الاراضي البزنطية . فجهز حملة بحرية سنة ٩٦٠ م وسار بها إلى كريت ليفتتحها ، فناب أخوه لاوون عنه في محاربة سيف الدولة ، فأحرز عدة انتصارات متقدماً إلى الرها وحران حتى احتل ديار بكر كلها . ثم ان القائد نجا مولى سيف الدولة تمكن من تعزيز موقف الجيش العربي ، فاستطاع ان يصد الروم في بعض المواقع ويؤخر تقدمهم .

وانتهز سيف الدولة الفرصة . وقد علم ان قوات كثيرة من

الجيش البزنطي أرسلت إلى كريت بقيادة نقفور ، فزحف على رأس ثلاثين الف فارس مخترقـــاً جبال طورس ، ليكره لاوون على الانسحاب ، فنجحت خطة الامير الحمداني ، ولم يجد القائد البزنطي بدأ من التقهقر إلى الشمال أمام هذا الهجوم المفـاجىء الذي عرض جناح جيشه الى الخطر .

ومضى سيف الدولة يجتاح في طريقه المدن والقرى ، ويفتح الحصون ويهدمها حتى امتلأت أيدي عسكره من الغنائم والسبي ، وانتهى إلى قلعة خرشنة على الفرات غير حاسب لجيش الروم حساباً . مع ان الدمستق لاوون لم يترك امير حلب يوغل في البلاد الا لكي يخف إلى مضايق الجبال فيملكها عليه منتظراً رجوعه ، وتقوم الحاميات المحلية بعد ذلك بحركات التطويق على نحو ما فصلناه في بحث « وقعة عمورية » .

وبلغ سيف الدولة وهو في خرشنة ان الروم أخذوا عليـــه الدروب ، فلم يجزع وامر بالرجوع ، فأشار عليه بعض أهل طرسوس ممن كان في صحبته ان يسلك معهم طريقاً غير الطرق التي دخلوا منها ، واحتلها جيش لاوون ، فلم يقبل نصيحتهم ، وابى ان يرجع إلا من الدرب التي اجتازها في دخوله ، مع انه كان عليه ان يتشبه بالمعتصم في عودته من عمورية . فلما وصل بجيشه إلى مضايق الجبـال اطبقت عليه العساكر البزنطية ، واحاطت به محـــاصرة ، فقاتل

مستبسلاً يائساً ، وحلقة الالتفاف تشتد ضيقاً وضغطاً ، حتى تمزقت كتائبه ، وفنية قتلاً واسراً . على انه استطاع ان ينفذ بزهاء ثلاثمائة من فلول فرسانه تاركاً للروم جميع ما كان بيده .

وليست هذه الحادثة أولى حوادثه من نوعها ، فقد أصابه مثلها سنة ٣٣٨ هـ (٩٤٩ م) ونجا بنفسه في فل قليل . ومع ذلك لم يتعظ بما نزل به في المرة الأولى لاعتداده برأيه حتى وقع في الثانية .

بيد ان هذه الكارثة لم تفت طويلاً في عضد الأمير العربي ، فانه استعاد حشد قواه في السنة التالية ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) وبعث قائده نجا على رأسها ليغزو بزنطة ، فالتقاه البطريق ميخائيل والقائد الأرمني تورنج فاستطال عليهما نجا ، فانهزمت الجيوش القيصرية ، وارتد مولى سيف الدولة الى حلب يجر وراءه الغنائم ، ومعه في الأسر القائد الأرمني وبعض بطارقة اليونان .

وكان الدمستق نقفور قد عاد في خلال هذه الحوادث الى القسطنطينية بعد ان افتتح كريت ، فرأت حكومة القيصر ان تنيط به محاربة سيف الدولة ، واستعادة ما بيده من الأمصار ، فقبل المهمة مرتاحاً اليها ، ولطالما فكر فيها ، فجعلها شغله الشاغل ، ووضع لها الخطط والرسوم . وقد علم ان التغلب على العرب لا يتسنى له ما لم يخرجهم اولاً من كيليكية ، وكان أمراؤها تابعين لسيف الدولة . فزحف اليها في اواخر كانون الثاني سنة ٩٦٢ م مخترقاً طورس

هابطاً السهول يحاصر المدن ويهاجمها حتى افتتح في برهـة اثنين وعشرين يوماً خمسين مدينة وحصناً ، هـذا اذا استندنا الى الرواية العربية ، وستين بحسب الرواية البزنطية .

ورأى نقفور أن يخلد إلى الراحة مدة بعد هذه المعـارك السريعة ، فسكن ريثما حل الخريف من تلك السنة ، فهب يستأنف زحفه بجحفل جرار يعد مائتي الف من الرجالة ، وعدة الوف من الفرسان المدرعين ، وثلاثين الفاً من الفعلة . فهاجم أولاً عين زربى ، وهي بلد من نواحي المصيصة فحاصرها ونصب عليها المنجنيقات ، حتى سقطت في يده ، فدخلها الجيش البزنطي فانتهبها ، وهدم سورها ، ولم يسلم اهلها من الاعتداء والتقتيل ثم سقطت بعدها عدة حصون ، يقول ابن خلدون انها أربعة وخمسون حصناً .

واستمر نقفور يتقدم حتى اجتاز جبل الكام (Amanus) في اواخر تشرين الثاني او اوائل كانون الأول (٩٦٢ م) ، فاستولى على طائفة من الحصون ، ثم قسم جيشه شطرين فدفع احدهما الى جهة الفرات ، فظن نجا ، قائد سيف الدولة ، ان نقفور يريد الشمال الشرقي بغارته ، فقصد اليه ليلتقيه . وما كان ذلك الا خديعة من الدمستق ليبعد الجيش العربي عن حلب ، فلما تمت له الخطة دلف بجيوشه الى العاصمة الحمدانية حتى بلغها فضرب عليها الحصار ثم هاجمها . وكان سيف الدولة غائباً عنها ، فأعجله الخبر عن الاحتشاد ،

فأسرع في جيش خفيف ليحامي عن قاعدة ملكه ، فلم يطق الثبات أمام القوات البزنطية ، فارتد منهزماً وظل اهل حلب يدافعون الأعداء حتى نهكت المهاجمات العنيفة قواهم ، فدخل الروم المدينة في ٢٣ كانون الأول (٩٦٢ م) ما خلا القلعة فقد لبثت وحدها تقاوم لا تستسلم . فعاث الجيش في العاصمة الحمدانية ، ناهباً سابياً ، يحرق المساجد والمنازل ، ويفتك بالأهلين فتكاً ذريعاً . وبعد أيام ثلاثة أمر نقفور بالجلاء عن حلب ، وأوصى أهلها بان ينشطوا للزراعة ، لأن المدينة أصبحت ملكاً له ، وسيعود اليها في السنة المقبلة ، ليستغل الزرع والحصاد .

جلا نقفور عن حلب ليخف الى القسطنطينية ، وقد جاءه نبأ بموت رومانس الثاني ، وبما حدث من الاضطراب في البلاط . لأن القيصر خلف بعده أولاداً قاصرين لا يجاوز بكرهم ستة أعوام من عمره . فأمر قبل وفاته أن تكون زوجته الامبراطورة تيوفانو وصية العرش يعاونها رئيس الحكومة جوزف برنغاس (Bringas) ، وان يعلن الوصاية البطريرك بوليوكت ومجلس الشيوخ .

ولكن تيوفانو كانت تسيء الظن برئيس الحكومة ، فرأت ان تستدعي نقفور وتستعين به ، معتمدة على حب الجيش والشعب له ، ولاسيما بعد انتصاراته العظيمة . فلما قدم العاصمة نادى به الجيش امبراطوراً ، فتزوج تيوفانو واعتلى عرش القياصرة .

وبينا هذه الحوادث تجري في القسطنطينية ، متطورة تطوراً غريباً تتخلله الفوضى والاضطرابات والفتن ، كان سيف الدولة في سورية يدفع الحملة تلو الحملة إلى ثغور الروم غازياً منتقماً ، لا يستقر في عاصمته بعد ان خربها نقفور . وكان قد أصيب بالفالج ، فإذا اشتد عليه الوجع أقعده عن الغزو بنفسه ، فيغزو عنه مولاه نجا . ولكن نقفور لم يغفل عن الحدود الشرقية في بعده عنها ، بل أرسل اليها قائداً من كبار قواد الروم ، وهو الدمستق ابن الشميشق (Jean Tzimiscès) فدافع عنها العرب طوال سنة ٩٦٣ م .

وفي ربيع السنة التالية خرج جيش لجب من بزنطة يقوده نقفور ، وترافقه تيوفانو ، جيش خليط شعوب ولغات ، حتى بلغ قيسارية مركز تموينه ، فذهبت تيوفانو وحاشيتها إلى قلعة دريزبيون (Drizibion) في قبّادوجه (Cappadoce) ، ومشى نقفور إلى الثغور الاسلامية ، فأصاب بعض انتصارات في المصيصة وطرسوس .

ثم عاد إلى دريزبيون ينظم جيوشه طوال فصل الشتاء . فلما اتم تجهيزها زحف بها سنة ٩٦٥ م قاصداً المصيصة وطرسوس فاستولى عليهما عنوة ، وأجلى عنهما المسلمين ، وهو وان يكن أجاز لجنوده ان ينتهبوا أموالهم جرياً على العادة المتبعة في تلك العصور ، إلا انه توعدهم بالعقاب الشديد إذا تعرضوا لهم بالأذية . وعهد إلى ثلاثة

من البطارقة في حمايتهم إلى أن يبلغوا الحدود السورية . وبعد سقوط طرسوس أصبحت كيليكية باسرهـا في أيدي الروم ، فالحقها نقفور بالامبراطورية البزنطية ، وقفل راجعاً إلى العاصمة . ويقول ابن خلدون ان الدمستق ابن الشميشق أراد ان يقصد سيف الدولة بميّا فارقين فمنعه الملك من ذلك .

وعاد نقفور فخرج بجيشه سنة ٩٦٦ م (٣٥٥ هـ) فحاصر آمد على الضفة اليمنى من دجلة ، فنال من أهلها قتلاً وأسراً ، ومع ذلك امتنعت عليه فلم يدخلهـا . وكان سيف الدولة في نصيبين ، فهمّ بمغادرتها قبل وصول الروم اليها ، ولكنهم ارتدوا عنهـا ولم يلحوا عليها في الحصار . فلبث بها مدة ثم انتقل إلى عاصمته حلب وقد اشتدت عليه العلة ، فتوفي تلك السنة ، فنقل جثمانه إلى ميًّا فارقين فدفن بها .

وانه وان لقي في اواخر حياته أياماً مشؤومة ، القت غشاء على انتصاراته السالفة ، لقد مات قرير العين في عاصمته الشهباء بعد أن جاهد زهاء ربع قرن دولة القياصرة . مات قبل أن يرى نقفور يفتتح حلب ويستولي عليها . فإن الملك البزنطي ما كان لينسى الخطط التي وضعها لاستعادة سورية وما بين النهرين ، فهذه الخطط ما انفكت تدور في رأسه ، وان شغلته عنها مشاكله الداخلية . فما أن فض هذه المشاكل حتى نشط إلى قيادة جيشه في منسلخ تموز

٩٦٨ م ، ووكده هذه المرة حلب وانطاكية ، فلم يجد من العرب مقاومة تستحق الذكر ، لأن أبا المعالي ابن سيف الدولة وخليفته على العرش ، لم تكن له همة الوالد واقدامه ، ولو توافرت له الوسائل التي توافرت لأبيه . فالدولة في عهده صارت الى الضعف ، وقطعت أوصالها الثورات والفتن واستقلال كل امير بولايته .

قال ابن خلدون : « دخل ملك الروم الشام فسار في نواحيها ، ولم يجد من يدافعه ، فعاث في نواحي طرابلس ، ثم حاصر الروم عرقة فملكوها ونهبوها . ثم قصدوا حمص فاحرقوها ، ورجعوا إلى بلاد السواحل وملكوا منها ثمانية عشر بلداً ، واستباحوا عامة القرى ، وساروا في جميع نواحي الشام ولا مدافع لهم . الا ان بعض العرب كانوا يغيرون على أطرافهم ، ثم رجع ملك الروم مجمعاً حصار حلب وانطاكية . ا هـ . »

وبلغ نقفور انطاكية في ١٨ كانون الثاني يجر خلفه مائة الف اسير معظمهم من الصبيان والصبيات ، بعد ان دوخ البلاد واخضعها ، ولكنه لم يحاول فتح انطاكية ولا قصد حلب ، بل رجع الى القسطنطينية . ويظهر ان أحداثاً جديدة استدعت حضوره ، على ان الجيش لم يرجع معه بل صارت قيادته الى الدمستق بطرس فوكاس ابن أخيه لاوون ، وكان من القواد الموهوبين ، فتابع الحرب بعد عمه ورافقه النصر مثله . ثم زحف بالجيش طالباً حلب ، الا انه

اضطر أن يرتد الى انطاكية لينقذ جيش القائد ميخائيل بورتزش (Bourtzès) ، وكان نقفور قبل رحيله قد عهد اليه في مراقبة قلعة انطاكية ، فخالف ميخائيل الاوامر التي تلقاها من عاهله وهاجم المدينة بغتة فاستولى على أحد أبراجها . ولم تكن قواته كافية للقيام بهذه الحملة فإذا بفرسان العرب يحيطون به ويشددون عليه الحصار . ولو لم يتداركه الدمستق بطرس لأجهزوا عليه .

ولكن كثرة العدد ثبّطت عزائمهم فتركوا القتال . ودخل الروم انطاكية في ٢٩ تشرين الأول سنة ٩٦٩ م . ثم ساروا بعدها الى حلب وفيها قرُغويَه غلام سيف الدولة ، وقد انتقض على أبي المعالي واخرجه منها ، واستبد بملكها ، فافتتحها البزنطيون ، ودخل قرغويه في طاعة القيصر يؤدي له الجزية والخراج . وعادت سورية الشمالية باسرها حتى شواطىء الفرات تابعة لدولة الروم ، بعد حرب عوان ألمع ما فيها ذكر سيف الدولة ونقفور .

صقلية بين الروم والعرب

أصبحت صقلية منذ سنة ٨٢٨ م تتساقط في أيدي العرب بلداً بعد بلد، وحصناً بعد حصن، حتى تم لهم الاستيلاء عليها الا قليلاً منها سنة ٨٧٨ م، واستخذت اليهم قلعة سرقوسة القديمة، فدخلها الأغالبة حكام افريقية، وجعلوا من صقلية البزنطية قاعدة بحرية تهدد الشواطىء الايطالية شرقاً وغرباً. ويجد فيها الاسطول العربي والقرصان المسلمون مرافىء أمينة يسهل الالتجاء اليها، والحصول على المؤونة والذخيرة منها. فان موقعها بمحاذاة ايطالية لا يفصل بينهما إلا مضيق مسّيني (Messine) يجعل نواحي قِلورية (Calabria) وسائر الجنوب المستطيل عرضة للغزو والاحتلال. فقد تمكن الاسطول العربي من اجتياز المضيق، واقتطاع جزء صالح من قلورية وانشاء إمارة اسلامية فيها. كما استطاع القرصان المسلمون أن يوغلوا غربي إيطالية ويعبروا نهر التبر مهددين رومة نفسها. فكان سقوط صقلية

في أيدي العرب نكبة لجميع الشواطىء الايطالية . فصارت لا تنقطع عنها الغزوات ، فإما أن تقوم بها حكومة افريقية أو إمارة الجزيرة واما ان يتولى امرها القرصان المسلمون . فانتهبت مدن كثيرة ، وهدمت حصون عديـــدة ، وانتشر الذعر والهول على الشواطىء الشرقية والغربية . فلم يبق سبيل إلى درء هذه الأخطار إلا باتحاد الأمراء المسيحيين ، وإزالة الشقاق من بينهم ، ذلك ما فكر فيه وسعى اليه لويس الثاني امبراطور المانية ليدفع الخطر الاسلامي عن رومة وأوربة . فتمكنوا بمساعـــدة الدولة البزنطية من القضاء على الحملات العسكرية المنظمة ، إلا انهم يستطيعوا أن يمنعوا غزوات القرصان المتوالية .

وعرفت بزنطة ان الأحداث التي أصابت جزرها ومرافئها جاءت نتيجة لضعف قواتها البحرية ، فنشطت إلى مضاعفتهـا وتجديدها . وكان الاسطول الرومي حتى القرن الثامن لا ينـافسه أسطول في البحر المتوسط ، فقد رد العرب مرتين عن القسطنطينيـــة ، وحمى صقلية وكريت من غاراتهم المتكررة .

غير انه أصبح بهذه القوة التي يتمتع بها خطراً مهدداً للعرش ، فقد خلع الأمبراطور ليونس (Léonce) سنة ٦٩٨ م وأقام مكانه امير البحر ابسيار (Apsimar) ، ثم خلع يوستنيانوس الثاني سنة ٧١١ م ، فارتاعت لذلك الأسرة الايزورية المالكة ، ورأت من الخير ان تزيـل

عنها سلطة البحرية باضعافها ، فتضع حداً لتدخلها في السياسة . وكان القياصرة الايزوريون يؤيدون مبادىء جحد الصور المقدسة ، مستندين إلى عطف الجيش الأسيوي ، فلقوا من رجال البحرية مقاومة عنيفة ، وتعلقاً شديداً بعبادة الصور وتكريمها ، وهن الرفيقات المؤنسة لهم في اخطار البحار . ووافق هذه الأحوال فتور في الاسطول العربي ، فشجع القياصرة على الغاء القيادة العليا وانقاص الحاميات البحرية وتخفيف عدد السفن والحراقات .

على ان الاسطول العربي ما لبث ان ظهر قوياً في القرن التاسع فاستولى على صقلية وكريت ، وجعلها قاعدتين لغزو الممتلكات البزنطية في ايطالية واليونان ، ولاسيا كريت فانها كانت تهدد شواطىء بحر إيجه باسرها . فاصبحت بزنطة لا غنية لها عن إحياء الأسطول وتعزيزه ، وساعدها على ذلك موت مذهب القائلين بانكار الصور المقدسة . فأعيد الأسطول وجددت الحاميات ، وزيدت لها القواعد البحرية ، فاستطاعت بزنطة ان تقضي على عدد كبير من قرصان العرب وتخرب أكنانهم .

ثم وجهت اهتمامها لاستعادة كريت وإزالة خطرها القريب . إذ كانت هذه الجزيرة قرارة شذاذ البحر ، وموئلهم المنيع ، يخرجون منها إلى الشواطىء اليونانية ينتهبونها ثم يعودون الى معقلهم آمنين . فجهزت اليها حملتين باءتا بالخيبة ، احداهما سنة ٩٠٢ م ، والثانية سنة

٩٤٩ م. فأتبعتها حملة ثالثة على رأسها نقفور (Nicéphore II Phocas) فوفق لفتحها سنة ٩٦١ م ، وزحزح عن صدر بزنطة هماً ثقيلاً .

ولكن استعادة كريت لا تجدي الممتلكات البزنطية في جنوبي ايطالية ما دامت صقلية في حكم العرب ، يغير غزاتها على شواطىء قلورية والانكُبرده (Longobardie) يثخنون في نواحيها والخليفة الفاطمي في افريقية يدافع عنها ويتعهدها برعايته لأنها جزء من مملكته . حتى اضطر البزنطيون الى ان يعقدوا مع الفاطميين معاهدة مذلة لهم ، قضت عليهم بان يؤدوا للخليفة كل سنة جزية تبلغ زهاء ثلاثمائة الف فرنك ذهباً . وعاهدهم العرب مقابل ذلك ان لا يزعجوا ولاياتهم في ايطالية .

الا ان بزنطة كانت تتأخر احياناً عن اداء الجزية ، فتغنم السفن العربية الفرصة ، وتعود الى غزو قلورية وغيرها من الشواطىء الايطالية ، فتضج تلك الأنحاء ، ويستصرخ أهلوها قيصر القسطنطينية لينجدهم ، او ينفس عنهم ببذل المال .

هكذا كانت حالة بزنطة مع الدولة الفاطمية في صقلية والقيروان عندما تبوأ العرش القيصري نقفور الثاني بعد ان افتتح كريت وكيليكية ، ودخل حلب سنة ٩٦٣ م . فكيف يرضى وقد تمت له هذه الفتوح والانتصارات ، ان تستمر حكومته على اداء الجزية لاعدائه العرب ، ولا يقبل الجزية الا كل خانع ضعيف . وهو الذي عاهد

نفسه ، وعاهد سلفه رومانس الثاني حين انتدبه لمحاربة المسلمين على ان يجاهدهم دون هوادة الى ان يستعيد جميع ما أخذوه من الأراضي البزنطية ، ولاسيا صقلية وكريت وسورية والأراضي المقدسة . فأمر بأن تقطع الجزية عن الخليفة الفاطمي ، وان يتأهب الاسطول والجيش للحرب . الا انه لم يحسن اختيار القيادة العليا لحملته ، فقد جعل رئيسها الخصي نيسيتاس (Nicétas) وهو قائد ضعيف ينقصه كثير من المواهب العسكرية ، ولو لم يكن أخاً لميشال حاجب القصر الامبراطوري لما نال هذه الثقة التي لا يستحقها .

وتسلم قيادة الخيالة البطريق منويل (Manuel) نسيب نقفور وكان شجاعاً متحمساً ولكنه قليل الخبرة في مواطن القتال . فأبحرت السفن من مياه القسطنطينية تحمل أربعين الف جندي من أمم شتى ، فبلغت مياه صقلية والصيف في أواخره (٩٦٤ م) . وبينا كان نقفور يهاجم بجيوشه اقطاعات سيف الدولة في كيليكية ، ويحرز انتصارات متعددة في المصيصة وطرسوس ، ثم يعود الى دريزبيون ينظم جيشه مدة فصل الشتاء ، كان نيسيتاس يتقدم باسطوله نحو الجزيرة الكبرى ناشراً سفائنه على شواطئها العديدة موزعاً قواه في أماكن متباعدة .

وكان الحاكم على صقلية أحمد بن الحسن بن علي من قبل المعز لدين الله الخليفة الفاطمي ، وقد سار يومئذ الى حصار رمطه

(Rometti) ، قلعة حصينة بصقلية لبث البزنطيون معتصمين بها يقاومون العرب ولا يستسلمون . فلما بلغه خروج الاسطول من القسطنطينية أرسل الى المعز يستنجده فأمده بالسفن والعساكر . وما كاد الاسطول البزنطي يحيط بشواطىء الجزيرة حتى اندفع منويل فوكاس بفرسانه في مضيق مسيني ، فصعد بهم الى اليابسة ، فاطلقوا الأعنة قاصدين رمطه لانقاذ اخوانهم من الحصار . ويقول المؤرخ تافرالي في كتاب « رجال الدولة » ان منويل غامر هذه المغامرة دون ان يتبين خطر القوات العربية ، ودون ان يتعرف مواقع الجزيرة . فأخذتهم الكمائن وهم يقتحمون حصار رمطه لكشف المسلمين عنها ، فقاتلوا مستميتين ، وسيوف العرب تتناولهم ، حتى هلك اكثرهم ، ووقع قائدهم منويل اسيراً . فركنوا إلى الفرار فاعترضتهم خنادق محفورة فتساقطوا فيها ، فتعقبهم المسلمون واجهزوا عليهم .

وكانت بقية الجيش البزنطي قد نزلت الى البر مبعثرة في اماكن متفرقة ، فاطبق عليها العرب من كل ناحية فأبادوا معظمها ، وهرب الذين نجوا الى البحر . وفيما كان الاسطول البزنطي يتراجع عن الجزيرة منهزماً هاجمه الأمير احمد بعدد كبير من السفن السريعة ، فخفت اليه تقذفه بالنار حتى احرقته وقضت عليه . ثم فتح العرب رمطه عنوة وغنموا ما فيها ، بعد حصار احد وعشرين شهراً ، فتم لهم الانتصار العظيم . وتسمى هذه الواقعة عندهم بوقعة المجاز اشارة الى مضيق مسيني . ويقول ابن خلدون ان المسلمين أسروا في هذه

الموقعة الف رجل من عظماء الروم ومائة بطريق ، وجيء بالغنائم والاسرى الى مدينة بَلَرم حاضرة صقلية .

وقع نبأ انكسار الحملة على نقفور وقعاً اليماً ، ولم يكن بوسعه ان يجددها ثانية لان نشاطه كان يومذاك منصرفاً الى محاربة سيف الدولة لافتتاح كيليكية وسورية ، وهما في نظر الدولة القيصرية أعظم شاناً وادنى خطراً من صقلية . فآثر ان يصالح الفاطميين ، ويفض ما بينه وبينهم من المشاكل سلماً ، على أن يوزع قواه في محاربتهم ومحاربة الحمدانيين معاً . فعقدت معاهدة بينه وبين المعز سنة ٩٦٨ م وضعت حداً للنزاع ، وقربت سبيل التفاهم ، ذلك بانها لقيت من الجانبين عطفاً وقبولاً لحدوثها ، في وقت كانت المملكتان المتعاديتان تواجهان خطراً مشتركاً ينحدر من شمالي ايطاليا خاطفاً منتشراً يهددهما على السواء . فان اوتون الاول امبراطور المانية ما كاد يتوج سنة ٩٣٦ م حتى اعتنق سياسة الفتح والتوسع رامياً الى تجديد قيصرية شرلمان ، واختط لنفسه ان يبتدىء اولاً بغزو الأمم المضعوفة يتملكها ويتبسط في بلادها ، فاناخ على الدويلات الايطالية يضمها اليه واحدة واحدة ، مستفيداً من تفسخها وتنابذها . فاستولى على الجهات الشمالية كلها ، وبويع له في بافي (Pavie) فتلقب بملك ايطالية .

ولما استتب امره في الشمال انحدر الى الاوساط يفتتحها ويلحقها بمملكته ، فسقطت رومه في يده ، وسقطت الانكبرده ، وكان امراؤها

من أتباع قيصر بزنطة . ثم أنزل البابا يوحنا الثاني عشر عن كرسيه لأنه كان مخالفاً له ، وأقام مكانه أحد مناصريه ، فعرف باسم لاوون الثامن . ومات لاوون فجعل خلفاً له يوحنـا الثالث عشر . وراح في الوقت نفسه يتابع الفتح ويقتطع الامارات البزنطيـــة . فذعرت القسطنطينية لهـذه الأحداث الخطيرة وهي لا تستطيـع دفعها لاشتغالها بحرب الفاطميين من جهة وحرب الحمدانيين من جهة أخرى ، فحاول نقفور ان يستوقفها بالمفاوضات قبل ان يلجأ الى قطع علاقاته بالفاتح الالماني ، فبعث اليه وفداً يعرض عليه الصلح والصداقة ، وكان ذلك على اثر انكسار الروم في وقعة المجاز . فاحسن أوتون استقبال الوفد ، ولكنه لم يقطع له عهداً ، بل رأى ان يرسل من قبله بعثـــة إلى القسطنطينية تفاوض القيصر في عقد محالفة بين الدولتين تضمن سلامة المدن اليونانية في جنوبي ايطالية . على أن تُشد هذه المحالفة باواصر المصاهرة فيتزوج ولي عهد المانية الأميرة تيوفانو البزنطية .

أي ان تخرج بنت القياصرة واخت القيـاصرة من القسطنطينية إلى امير غريب لا دمه من دمها ولا جنسه من جنسها ، يعتدي على حقوق بزنطة فيدخل رومة حاملاً لقب الامبراطور تشبهاً بقياصرة الرومان ، مع انه ليس لأحد ان يرث هذا اللقب الا ملوك القسطنطينية، فمن الطبيعي ان لا يلقى طلب المصاهرة قبولاً عند نقفور وحكومته الا انه كان مضطراً الى المطاولة في المفاوضات اكتسابـاً للوقت .

فعادت البعثة على غير نتيجة حاسمة . ثم ارسل نقفور وفداً جديداً

الى اوتون ، يعرض عليه الحلف والمصادقة ، ساكتاً عن زواج الأميرة البزنطية بالأمير الالماني . فاستاء أوتون ، واستأنف الحملة على الممتلكات البزنطية . فلم يصب النجاح الذي كان يتوقعه ، فجدد المفاوضات بينه وبين بزنطة ، فباءت بالخيبة كسابقاتها ، ولم يبق مناص من الحرب فتجهز أوتون ، وتجهز نقفور بعد ان مد يد المصالحة الى المعز الفاطمي ، فأسرع الخليفة الى مصافحته ، لأن الخطر الذي يحدق بممتلكات الروم في جنوبي ايطالية يهدد في الوقت نفسه صقلية . فأصبح في مصلحة العدوين القديمين ان يتركا النزاع ويتناسيا الشحناء لدفع العدو المشترك عن ولاياتهما الجنوبية ، فتم الاتفاق على التعاون في رد المغير الالماني .

ولما زحف أوتون الى الجنوب مهاجماً المدن والحصون سنة ٩٦٨ و ٩٦٩ م لقي الجيوش الرومية والعربية متحدة على قتاله ، والاسطولين يؤلفان في اجتماعهما اسطولاً واحداً . فامتزج الدم العربي والدم البزنطي متصافيين على اخوة السلاح .

وارتد الالمان بعد معارك كثيرة عن ايطالية الجنوبية متخلين عن ممتلكات البزنطيين ، ولكن على نية الرجوع اليها عند سنوح الفرصة . وسلمت صقلية فما نال منها الغازي ولا أصابها بسوء فبقيت في حكم العرب . ولم يستطع نقفور استنقاذها منهم كما وعد ووطن نفسه ، مع ما كان عليه اسطوله من القوة حتى قال مفتخراً به :

« لي وحدي رقابة البحر . » وظلت ممتنعة على كل فاتح الى ان تقسمت ولايات صغيرة تتخاصم وتحترب ، فطمع فيهـــا الغزاة النرمانديون ، وكانوا قد استولوا على جنوبي ايطالية . فلما دعاهم أحد ولاتها ابن الثِمنة مستنصراً بهم على خصومه ، دخلها روجر وأخوه روبر بجيوشهما ، ومـــا زالا يفتتحانها بلداً اثر بلد حتى سقطت باجمعها سنة ١٠٨٦ م وزالت عنها كلمة العرب بعد ان قامت فيهـــا حضارتهم طوال قرنين .

المراجع

الكتب العربية

البلاذري : فتوح البلدان

الواقدي : فتوح الشام

الطبري : تاريخ الأمم والملوك

المسعودي : مروج الذهب

ابن الأثير : الكامل

ابن خلدون : كتاب العبر

ابن خلكان : وفيات الأعيان

ياقوت : معجم البلدان

المقري : نفح الطيب

ابن العبرى : مختصر الدول

بطرس البستاني : ادباء العرب ، جزء : ٢ و ٣

الكتب المنقولة

نولدكه : امراء غسان

(الترجمة العربية : لجوزي وزريق)

الكتب الفرنسية

Cl. HUART, *Histoire des Arabes.* Geuthner Paris.

Raymond FURON, *La Perse.* Payot, Paris.

Steven RUNNCINAN, *La Civilisation Byzantine.* Payot, Paris.

Louis BERTRAND. *Histoire d'Espagne.* Arthème Fayard, Paris.

O. TAFRATI, *Hommes d'Etat. Nicéphore II Phocas.* Desclée de Brouwer, Paris.

فهرست

كتب للمؤلف

أدباء العرب :

١ – في الجاهلية وصدر الاسلام

٢ – في الأعصر العباسية

٣ – في الأندلس وعصر الانبعاث

٤ – منتقيات أدباء العرب في الأعصر العباسية

معارك العرب في الشرق والغرب

معارك العرب في الأندلس

الشعراء الفرسان

تحقيق رسالة التوابع والزوابع



توزيع
دار الجيل
بيروت